مكتبة الأسرة 2000

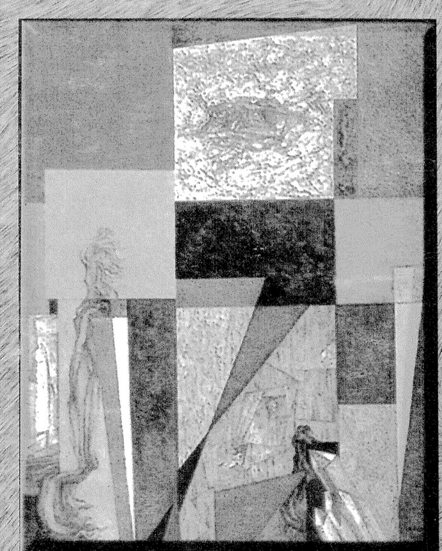
مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الفكرية

تجديد الفكر القومى

د. مصطفى الفقى

طبعة ثانية



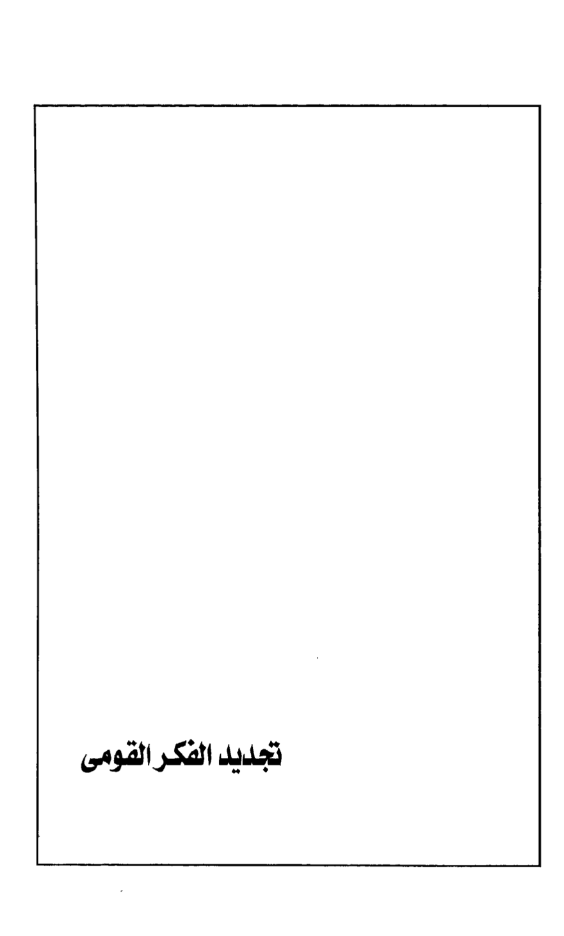
لوحة للفنان: عبد الرحمن النشار

الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠١

صيدلى/ حسن سعد الدين حجازى

الإسكندرية



تجديد الفكر القومى

طبعة خاصة
تصدرها دار الشروق
ضمن مشروع مكتبة الأسرة

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) - بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤
هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

تجديد الفكر القومى

الطبعة الثانية

د . مصطفى الفقى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

تجديد الفكر القومى

د. مصطفى الفقى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشـــــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً وإقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

د. مصطفى الفقى

- تخرج فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة (١٩٦٦)، وحصل على «دكتوراه الفلسفة» فى العلوم السياسية من جامعة لندن (١٩٧٧).
- دبلوماسى فى وزارة الخارجية المصرية منذ عام تخرجه، وخدم فى سفارتى مصر لدى بريطانيا والهند، كما تولى منصب «أمين عام المجلس الاستشارى للسياسة الخارجية»، ومدير معهد الدراسات الدبلوماسية، وسفير مصر لدى جمهورية النمسا، وجمهوريات التشيك وسلوفينيا وكرواتيا، وسفير غير مقيم ومندوب مصر لدى المنظمات الدولية فى «فيينا».
- عمل سكرتيرًا للسيد رئيس جمهورية مصر العربية للمعلومات فى الفترة من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٢.
- قام بالتدريس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة لمدة خمسة عشر عامًا (١٩٨٧-١٩٩٣) وممتحن خارجى لعشرات من الدرجات العلمية بالجامعات المصرية.
- محاضر فى عدد كبير من العواصم العربية والأجنبية، ومتحدث رئيسى فى الجلسة الافتتاحية للمنتدى الاقتصادى الدولى «بدافوس» فى سويسرا - يناير ١٩٩٥.
- حصل على كأس «الخطابة» من أسبوع شباب الجامعات المصرية عام ١٩٦٥. والجائزة الأولى فى «المقال السياسى للشباب» من المجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب عام ١٩٦٦. وجائزة «أفضل كتاب فى الفكر السياسى» من معرض القاهرة الدولى للكتاب عام ١٩٩٣. وجائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٩٤. وحاصل على أوسمة مصرية وأجنبية وآخرها وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى من حكومة النمسا عام ١٩٩٨.
- عضو المجلس الأعلى للثقافة (لجنة العلوم السياسية). له عشرات المقالات باللغتين العربية والإنجليزية فى الدوريات العربية والأجنبية، ومؤلفات عديدة باللغتين العربية والإنجليزية، كما شارك فى إعداد وتأليف الموسوعة القبطية (باريس ١٩٩٠). وموسوعة الشروق (القاهرة ١٩٩٣).

تقديم

لعبت القوميات دورًا رئيسًا فى تاريخ الإنسانية ، وكانت طرفا مباشرًا فى كل الصراعات التى عرفتها البشرية . فكلمة « القوم » تعبير عن نزعة ذاتية ، وخصائص مشتركة تميز البعض عن الكل ، وتعطى إحساسًا بالانتماء ، يجعل « المسألة القومية » سابقة على كل الاختلافات الدينية أو التوجهات الفكرية ؛ لأنها رابطة لا تخلو من انحياز ، يصل إلى حد التعصب الذى يؤدى ، فى كثير من المناسبات ، إلى الربط بين القومية والعنصرية ، مع اعتبار أن عصر القوميات هو عصر نشوء الدولة ، بعد بلورة شخصية الشعوب واكتمال نضوج الأمم . والشرق الأوسط عرف ، عبر تاريخه الطويل ، أقواما فى أرجائه المختلفة ، جاء ذكرهم فى الكتب المقدسة ، وترددت حولهم الروايات الدينية (*) ، إلى أن أصبح الإسلام هو الدين الغالب بين سكان تلك المنطقة من عالمنا المعاصر ، وأضحت العروبة هى التيار القومى السائد ، انتسابا إلى اللغة الواحدة والخصائص الثقافية المشتركة ، بالإضافة إلى تشابه الظروف التاريخية وتداخل الموجات الحضارية بين شعوب الأمة العربية .

ولقد فكرت فى أن أكتب عن تجديد الفكر القومى ، دون الوقوف عند مجرد إحيائه ، لأن مفهوم التجديد ينطوى على دلالات الإحياء مع التغيير ، وليس مجرد استعادة روح خفت حماسها أو ضعف تأثيرها . فالتجديد يعنى ، بالدرجة الأولى ، أن عودة الروح تقترن بتطورات جديدة ، وتستوعب التحولات التى حدثت ، والتغيرات التى طرأت على الساحة السياسية فى الوطن العربى ، منذ انتهاء فترة المد القومى ، الذى تعرض لموجة انكسار تدخل الآن عقدها الثالث .

ولابد ، فى مستهل هذا الكتاب ، أن أقدم ، وبوضوح ، دوافعى لارتياد هذا الطريق

(*) عرف الشرق الأوسط القديم أقوامًا ، مثل : « عاد » و « ثمود » و « لوط » وغيرهم ، حيث جاء ذكرهم فى التوراة ، والإنجيل ، ثم القرآن الكريم ، وإن اختلفت المسميات لنفس الأقوام فى سياق القصص الدينى .

واختيارى موضوع تجديد الفكر القومى ، أو البعث المتطور للحركة العربية الواحدة . ويمكن التعرض لهذه الدوافع فى عدد من الاعتبارات ، أهمها ما يلى :

أولا : إن الحركة القومية قد عرفت موجات المد والجزر ، وحالات التقدم والانحسار لأنها بطبيعتها حركة أمة ، وارتباط شعوب ، وتعبير أصولى يعنى العودة إلى الجذور القومية واستعادة أمجاد التاريخ الواحد . وروح الأمم لا تنتهى . . كما أن الشعوب لا تفنى . . قد تتغير المسميات ، أو تتبدل الكيانات السياسية والأشكال الدستورية ؛ ولكن « ذات » الأمة لا تغيب ، كما أن وجودها لا يتحول إلى عدم .

من هنا ، فإن الظروف التى تواجهها الأمة العربية ، فى سنواتها الأخيرة ، هى ظروف صراع سياسى ، وتضارب فى الرؤى ، واختلاف حول الأولويات . ولكن الروح القومية لم تتغير . كما أن رابطة العروبة لا تبدو محل جدل فكرى ، بقدر ما هى موضع اهتمام سياسى . ولقد عرف العرب لحظات مجد قومى ، كما عرفوا لحظات انكسار تاريخى ؛ وتعلمت الأمة فى الحالتين أن ماضيها موصول بحاضرها ، وأن مستقبلها مرتبط بقدرتها على الصمود الجاد والمواجهة الشجاعة ، والحركة المستمرة .

ثانيا : إن الفكر القومى العربى ، يختلط تاريخيا بتاريخ الإسلام فى المنطقة . ويحتدم الجدل دائمًا : هل العروبة هى التى حملت الإسلام إلى الشعوب التى قبلته ، والأمم التى آمنت به ؟ أم أن الإسلام هو الذى أعطى هذا المجتمع الجاهلى ، فى شبه الجزيرة العربية ، قدرة الانطلاق نحو آفاق الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة ؟ مع التسليم بأن العربية هى لغة القرآن الكريم وأن رسول الإسلام عربى ؟

ولاشك أن ذلك الجدل يعبر عن إشكالية مصطنعة . فمفهوم العروبة ، يعنى ضمنا استيعاب الثقافة الإسلامية ، واحتواء تاريخ الدعوة ، كنقطة محورية فى تجسيد الشخصية القومية ، ويجعل الحديث عن الحضارة العربية الإسلامية مسألة مقبولة لدى العرب جميعا دون النظر فى معتقداتهم الدينية ، أو اختلافاتهم الفكرية .

ثالثا : إننا ، حين نتحدث عن تجديد الفكر القومى العربى ، لا نقف فى مواجهة مباشرة مع الروافد الحضارية الأخرى لذلك الفكر . إننا نؤمن بأن حضارة الأمم وتاريخ الشعوب هما تراكم طبيعى لطبقات متتالية من ثقافات متعددة ، وفدت على الأرض العربية ، وتركت بصماتها التى بلورت فى النهاية الشخصية الثقافية لسكانها . إننا نؤمن بأن حركة التاريخ حركة تراكمية ، وليست بالضرورة حركة تصادمية . فنحن لا نجد ، ونحن نتحدث عن تجديد الفكر القومى العربى ، غضاضة فى أن نتحمس أحيانًا للفرعونية فى مصر ، أو البابلية فى

العراق ، أو الفينيقية فى الشام ، أو تاريخ البربر فى شمال إفريقيا ؛ فتلك كلها رواسب حضارية ، ومظاهر تاريخية ، انصهرت بها فى النهاية شخصية العرب ، وتبلورت قوميتهم .

إننا ، باختصار ، نعترف ، فى إطار الدعوة إلى التجديد القومى ، بالخصوصية القطرية فى إطار قومى ، وبالمزاج الشعبى ضمن أمة عربية واحدة .

رابعا : إن انشغال الدول العربية بمشكلاتها ، وانصرافها إلى شئونها ، لا يعنيان بالضرورة ، أن حالة الانزواء القومى أو الانكفاء المحلى سوف تستمر ، خصمًا من حساب المصلحة العربية العليا ، بل قد يكون العكس صحيحًا ، إذ إن الوضع العربى الراهن يستوجب ، أكثر من أى وقت مضى ، ضرورة التفكير الجدى فى البحث عن صيغة عصرية للمد القومى ، تستوعب فى ذاتها كافة المتغيرات ، وتحتفظ فى ضميرها بكل الثوابت .

خامسا : يهمنى أن أسجل بداية ، أنه يتعين علينا أن نلتزم بأكبر قدر من الموضوعية والحياد الأكاديمى ، حين نتعرض بالإشارة إلى تاريخ الحركات القومية المعاصرة فى المنطقة العربية ، دون تحامل على اتجاه معين أو حركة بذاتها ، لأسباب فكرية أو تعصب قطرى . فموقفنا من حركة البعث العربى لا يتناقض مع موقفنا من التيارات الناصرية ، ولا يكون تفهمنا لفكر القوميين العرب خصما من تقديرنا لحركة الوحدويين الاشتراكيين ، أو على حساب اليسار القومى برغم كل تحالفاته التاريخية أوانتكاساته الحالية .

بل إننى أزيد على ذلك ، أننى لا أجد حرجا فى أن أقرر أن كثيرًا من المسلمات فى تاريخنا القومى الحديث ، تحتاج إلى مراجعة أمينة ، وتوصيف دقيق ، وتحليل صادق . فأنا ، مثلا ضد تجريم « الحزب القومى السورى » ، وأرى أنه قد آن الأوان لرد الاعتبار إليه ، وإنصاف قيادته ، لأنه يعبر عن اجتهاد قومى فى مرحلة معينة ، ويعد تجسيدًا لمعنى القومية وتمهيدًا لأمل الوحدة .

إننى أكرر أن كثيرًا من المعطيات المقبولة فى تاريخنا القومى ، ما زالت تحتاج إلى إعادة دراسة وتدقيق موضوعى ؛ فالأصنام التاريخية ضد طبيعة العقل ، كما أن الأحكام المطلقة ضد حركة التاريخ .

سادسا : إذا كانت الثورة العربية الكبرى ، التى قادها « الشريف حسين » فى ظل ظروف الحرب العالمية الأولى ، هى محاولة قومية للخلاص من الحكم العثمانى فى مرحلة احتضاره فإن ثورة ١٩٥٢ المصرية تمثل مواجهة عربية شاملة ، تجاوزت حدود مصر ، لتعبر عن حركة عربية واحدة ، ضد رموز التبعية السياسية والسيطرة الأجنبية . وفيما بين الثورتين ، تعددت

المحاولات ، وتنوعت الرؤى ، فى إطار شامل يؤمن بوجود أمة واحدة ، ذات خصائص مشتركة وضمير قومى لا خلاف حوله .

ومن هنا ، فإن أى حديث حاليا ، عن الفكر القومى العربى المعاصر ، إنما يعنى بالضرورة ، شيئًا مختلفا تمامًا عن الطرح السائد من قبل . فنحن اليوم نستوعب جميع المستجدات على الساحتين الدولية والإقليمية ، بدءًا من الشكل الجديد للنظام الدولى وانتهاء باتفاقيات السلام القادمة بين العرب وإسرائيل .

إننا ، باختصار ، لا نقف جامدين أمام رموز فكرية ، ولا نردد صياغات جامدة ، كما لا ندور حول شعارات عفا عليها الزمن . بل إننا نؤمن ، وعن يقين كامل ، بأن هناك أمة عربية تواجه أكبر مأزق قومى فى تاريخها الحديث ، وأنها أصبحت فى حاجة إلى استحضار عاجل لذاكرتها القومية ، واستعادة ملحة لتضامنها المفقود ، مع استيعاب واع لكل المتغيرات وإيمان عقلانى بالثوابت . . . أمة عربية فاعلة ، تمارس دورًا حضاريًا فى عالمنا المعاصر . . . أمة عربية قادرة على أن تبرأ من رنين اللفظ ، حتى لا يصفها الغير بأنها « ظاهرة صوتية » . . . أمة صادقة مع نفسها ، تقول ما تؤمن به ، حتى لا يتهمها الآخرون بازدواج الشخصية . . . أمة إيجابية ، تسعى إلى الأخذ والعطاء مع الدنيا من حولها ، دون تعصب أو انحياز ، دون عفوية أو اندفاع . . . تحكم مسيرتها يقظة الضمير القومى . . . وتحدد طريقها صحوة العقل العربى . . . ويشدها نحو المستقبل فكر متطور وروح متجددة .

د. مصطفى الفقى

الفصـــل الأول

بيـــن الديـــن والقـــوميـــة

« إنه لا سبيل لتمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها . .
والأمة العربية هى (عرب) قبل كل دين
ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور
للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان » .

جمال الدين الأفغانى

بيـن الديـن والقـوميـة

احتدم الجدل ، بين أنصار الفكر القومى ودعاة التيار الدينى ، حول أسبقية أيهما على الآخر ، وذهب كل فريق يبحث فى الأصول وينقب فى الجذور ، لاستكشاف طبيعة العلاقة بين الدين والقومية ، وتحديد نقاط الالتقاء وأسباب الاختلاف بينهما . وارتفعت حدة النقاش فى مناسبات عديدة ، عبر السنوات الأخيرة ، بين من يعطون الأولوية للدين ، على اعتبار أن الدولة الدينية سابقة على الدولة القومية فى العصر الحديث ، وبين من يرون ، خلافًا لذلك بأن الأصل فى ظهور المجتمعات المدنية والكيانات السياسية ، إنما يبدأ بمفهوم القبيلة ، التى قد يرقى تكوينها ليصل إلى تكوين الشعب من خلال التركيز على مفهوم « القوم » ، وبذلك تصبح القومية ـ حتى قبل اكتشاف مضمونها العرقى ، أو جوهرها العاطفى ـ هى الأسبق ظهورًا على مسرح الحياة الإنسانية .

وإذا قلّبنا فى صفحات الفكر السياسى الحديث ، فسوف نجد أن القومية والدين لم يقفا فى خندق واحد ، إلا مرة واحدة حين واجها معًا خصما مشتركا ، هو النظم الشيوعية القائمة على أساس ماركسى ، والتى أخذت موقفا معاديًا منهما معا وفى وقت واحد . فلقد حظيت المسألة الدينية بمثل ما نالته المسألة القومية ، من نظرة رافضة تجاههما ، من منطلق فكر مادى جدلى ، يحملهما معا المسئولية المشتركة فى تمزيق وحدة الجنس البشرى ، وتقسيم الإنسانية على نحو يتعارض مع أهمية الفكر الماركسى ، ودعوته لاتحاد الطبقة العاملة ، دون الأخذ فى الاعتبار بأية فوارق تتصل باختلاف القوميات ، أو تعدد الديانات .

فإذا انتقلنا من منظور عام ، إلى البحث تخصيصًا فى العلاقة بين الدين والقومية فى منطقة الشرق الأوسط ، مهبط الديانات السماوية الثلاث الكبرى ، ومركز القوميات التى عرفتها شعوب المنطقة ، فإننا نصل فى النهاية إلى طبيعة العلاقة المباشرة بين الإسلام والعروبة باعتبار أن الأول هو دين أغلب الأمم من سكان هذه المنطقة ، بينما العروبة هى الوعاء القومى لشعوبها . ويذهب المتخصصون بعيدا بالبحث فى بداية العلاقة بين القضيتين معا ، ويثور

دائما تساؤل متكرر : أيهما تقدم على الآخر وجاء به ؟ ويمكن أن نضع التساؤل بصيغة أخرى حين نقول : هل حملت العروبة ، والتى كانت تعبيرًا عن مجتمعات أقل حضارة ، الإسلام الحنيف إلى مجتمعات أكثر رقيًّا وتماسكا وتحضرًا ؟ أم أن الإسلام هو الذى خرج على هذه الأمم والحضارات ، فاستقبلته شعوبها بالترحيب - كل لأسبابه - بينما استعصى على بعضها قبول العروبة لغة وثقافة وأسلوب حياة ؟ وبذلك أصبحنا أمام منطوق واضح مؤداه : أن معظم العرب مسلمون ، ولكن غالبية المسلمين ليسوا عربا .

وبذلك يبدو الخلاف محسوما ؛ فالعلاقة التبادلية بين الإسلام والعروبة واضحة ، لا تحتاج إلى بيان ؛ كما أنها تجعل منهما وجهين لعملة واحدة ، ترتكز على أن الإسلام هو رسالة السماء إلى نبى عربى ؛ كما أن القرآن الكريم هو قاموس العربية الأول ، قبل أن يكون كتابًا مقدسًا بمكانته الروحية . فالعرب يقعون فى قلب الإسلام . ولعل « عبد الرحمن الكواكبى » قد أصاب كبد الحقيقة ، حين قال : « إن العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية » (١) .

وبذلك تبدو إشكالية الصدام بين الإسلام والعروبة مصطنعة . فشخصية الإسلام الدين الحنيف الذى يتوجه إلى الناس كافة ، هى فى الأساس عربية المزاج ، كما أن العروبة لا تستطيع أن تنهض ، بغير التسليم بفضل الإسلام على بقائها وانتشارها ؛ فهو الذى جعل لقبائل الجاهلية العربية سطوة على الشعوب المجاورة ، وسلطانا فوق حضارات راسخة .

وهنا أستعير مقولة واضحة للإمام الشهيد « حسن البنا » حين يقول : « لقد نشأ الإسلام عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان . . فالعرب هم أمة الإسلام الأولى وشعبه المتميز . . ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة العرب ونهضتها . . وليس فى الدنيا جامعة أقوى وأقرب من جامعة تجمع العرب بالعرب ، فاللغة واحدة ، والأرض واحدة ، والآمال واحدة ، والتاريخ واحد ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها » (٢) .

---

(١) كان لنا اهتمام مبكر بفكر « الكواكبى » ، وأعددنا بحثًا جامعيًا عام ١٩٦٤ ، تحت إشراف الأستاذ الدكتور بطرس غالى حول « الكواكبى والتنظيم الدولى الإسلامى » ، فى (قاعة البحث) ، بالسنة الثالثة ، بقسم العلوم السياسية ، بكلية الاقتصاد - جامعة القاهرة . وعند مناقشة البحث ، أثار بعض الزملاء مسألة حفاوة الباحث باللغة ، وعنايته بجمال الأسلوب ، فرد د. غالى بأن ذلك لا ينتقص من قيمة البحث ، بل يزيدها ، ما دام الشكل لا يتحقق على حساب المضمون ، وضرب أمثلة بعدد من المفكرين والكتاب الفرنسيين ، الذين كانوا يحتفون باللغة ، ويكتمل لهم المظهر والجوهر فى آن واحد .

(٢) د. محمد عمارة « الإسلام والعروبة » دار الشروق ١٩٨٨ - ص ٨٨ .

وواقع الأمر ، أن إشكالية التناقض بين الدين والقومية ، لا تقوم على سند ثابت فى كل المجتمعات أو مختلف الأزمنة . فدعاة « الجامعة الإسلامية » لم يكونوا بالضرورة أعداء للوحدة العربية ، ولكن الذى حدث أنهم كانوا يغلبون جانب الدين ، كعنصر مؤثر فى القومية ويتخذونه وحده سندا لخدمة دعوتهم ودعم فكرهم . وسوف نلاحظ أن كثيرًا من المفكرين الإسلاميين المعاصرين يرفضون ذلك التناقض بين العروبة والإسلام ، ويرون أنه تناقض مزعوم ومفتعل (٣) .

ولكن بؤرة الخلاف الحقيقى ، ومركز التناقض المحتمل ، بين العروبة والإسلام ، إنما يثوران بالفعل لدى أولئك الذين يعتبرون الإسلام دينا وقومية فى وقت واحد ؛ إذ إن رحابة الدين الحنيف ، وارتباط المسلم بشريعته ، والتفصيلات الدقيقة التى تدخلت بها فى حياته بدءًا من الميلاد حتى الوفاة ، مرورًا بالزواج والطلاق والميراث والمعاملات ، جعلت المسلم فى النهاية يعيش دينه فى حياته اليومية ، ويرجع إليه عند كل تساؤل . والأهم من ذلك ، أنه يحدد علاقته بالآخرين ، وفقًا لتعاليم الدين ونصوصه المقدسة . ولعل أوضح نموذج لذلك ذلك الأساس الروحى والقومى ، الذى استند إليه المجاهدون الجزائريون ، فى سنوات النضال الدامية ، ضد الاحتلال الفرنسى ؛ فلقد كان الإسلام ، بالنسبة لهم ، دينا وقومية فى وقت واحد ، إذ لم يكن للعروبة وجود راسخ ، كما أن حركة التعريب لم تكن قد بدأت بشكل مؤثر ، وبذلك لم يكن أمام المناضل الجزائرى من سند ، يواجه به عدوه إلا دينه الذى يختلف به عنه ، فقد كان الجزائريون والفرنسيون ، فى ذلك الوقت ، يتحدثون لغة واحدة ، وينتمون إلى ثقافة مشتركة ، ولم يكن هناك معيار للاختلاف ، وتصنيف الهوية ، وتحديد الذات ، إلا بالمنطلق الدينى والأساس الروحى . ولذلك لم يكن غريبا ، أن يكون المتشيعون للقول بأن تأثير الإسلام على المؤمنين به أكبر بكثير من تأثير العامل القومى ، لم يكن غريبًا أن يكونوا تلقائيا على الطرف الآخر من الفكر القومى .

ولعل فكر « أبو الأعلى المودودى » و « سيد قطب » ، وغيرهما من المفكرين الإسلاميين هو نموذج لهذه النظرة المتشككة تجاه القومية عمومًا والعربية خصوصًا ، حيث يرون فيهما محاولة شعوبية ، تنتقص من مفهوم الأمة الإسلامية ، وتعتبر تفكيرًا عنصريًا ، يخرج عن مظلة « الجامعة الإسلامية » .

ولعله من الملفت ، أن دعاة التيار الإسلامى ، وهم ينظرون بكثير من الريبة إلى تطور

---

(٣) المرجع السابق ص : ٨٦ .

الفكر القومى العربى الحديث ، إنما يستندون فى ذلك إلى أن نسبة كبيرة من دعاة الفكرة القومية ورواد التوجهات العروبية ، ـ خصوصا فى منطقة الشام ـ كانوا من غير المسلمين . وهم يرون أنه كما أن إرهاصات الحركة الاشتراكية فى مصر قد انبثقت على يد بعض الرواد من اليهود ، فإن دعاة التوجهات القومية فى الشام قادها بعض النصارى ، ويرددون فى هذا الصدد أسماء كثيرة من بينها « أنطون سعادة » و « ميشيل عفلق » . ويرى الغلاة من دعاة التيار الإسلامى ، الذى يتوجس خيفة من المد القومى العربى ، أن الاتجاهين معا الاشتراكى فى وقته والقومى فى ذروته ، كلاهما يعبر عن محاولة مغرضة للنيل من التيار الإسلامى وإيقاف زحفه ، وتعويق مسيرته .

ولا يعنى ذلك توقف المحاولات المخلصة ، من دعاة التيارين الإسلامى والعربى معا للتوفيق بين دوافعهما وأسلوب تحركهما . ويستدل هؤلاء وأولئك على صدق نياتهم ، بموقف كليهما من القضية الفلسطينية التى تحتوى على البعدين الدينى والقومى فى وقت واحد . ويردد الإسلاميون فى معرض الحديث عن الصراع العربى ـ الإسرائيلى حقيقة تاريخية ، هى أن طلائع المتطوعين من الإخوان المسلمين بادرت ، قبل غيرها ، بالمشاركة الفعلية فى أول حرب عربية إسرائيلية عام ١٩٤٨ ، مؤكدين بذلك أن إسهامهم القومى يأتى تلقائيا من خلال رؤية إسلامية . بينما يدافع القوميون ، فى الجانب الآخر ، بقولهم إنه ليس لديهم من سبيل لانكار البعد الإسلامى فى المسألة القومية ، فى إطار التاريخ العربى الحديث ، مؤكدين أن رواد الحركة القومية من غير المسلمين كانوا ، برغم اختلاف الدين ، أبناء طبيعيين للثقافة العربية الإسلامية ، وإفرازاً عاديًا لمجتمعات إسلامية ، تبحث عن هوية قومية ، دون تناقض مع عقيدتها الروحية .

ولنتأمل ما ذكره عربى مسيحى ، هو « جورج أنطونيوس » ، فى كتابه الشهير الذى يؤرخ به للثورة العربية الكبرى ، إبان الحرب العالمية الأولى ، حيث يقول : « لقد استمر الدين الإسلامى واللغة العربية فى التقدم بخطوات واسعة ، خلال القرون التالية ، وذلك بفضل ما ينطويان عليه من قدرة خارقة على الانتشار ، وبذلك تشكل عالمان ؛ أحدهما أوسع من الآخر بكثير ، وهما العالم الإسلامى والعالم العربى ، ولقد حوى الأول الثانى . ومع تقدم الزمن ضم العالم الإسلامى الهند ، والصين ، وأقصى الغرب من مجاهل إفريقيا ، بينما بقى العالم العربى منحصرًا فى البلاد التى بلغت فى الاستعراب مبلغًا كبيرًا ، ضمن لها ثلاث نتائج باقية : سيطرة العربية فيها كلغة قومية ، اكتساب سكانها العادات العربية ، واستقرار نسبة وافرة من أبناء الجنس العربى فيها واندماجهم بأهلها »[٤] .

(٤) جورج أنطونيوس « يقظة العرب » ص : ٦ .

ونضيف إلى ذلك شهادة قومى مسيحى آخر ، له دوره المؤثر فى التنظير لمرحلة من الفكر القومى المعاصر ، إذ يقول « ميشيل عفلق » فى الاحتفال بذكرى الرسول العربى : « إن حركة الإسلام ، المتمثلة فى حياة الرسول الكريم ، ليست بالنسبة إلى العرب حدثا تاريخيًا فحسب تفسر بالزمان والمكان وبالأسباب والنتائج ، بل إنها لعمقها وعنفها واتساعها ، ترتبط ارتباطًا مباشرًا بحياة العرب المطلقة ، أى أنها صورة صادقة ، ورمز كامل خالد ، لطبيعة النفس البشرية ، ومكانتها الغنية ، واتجاهها الأصيل ، فيصبح لذلك اعتبارها ممكنة التجدد دوما فى روحها ، لا فى شكلها وحروفها ؛ فالإسلام هو الهزة الحيوية التى تحرك كامن القوى فى الأمة العربية ، فتجيش الحياة الحارة ، خارقة سدود التقليد وقيود الإصلاح »(٥) .

ومن الأمور التى نلحظها ، فى العلاقة بين الإسلام والعروبة ، هو تفاوت التأثير والتأثر بأحدهما وفقا لطبيعة كل شعب فى المنطقة العربية . ففى الشام ، تبدو للعروبة اليد العليا على الرغم من أن الإسلام دين الغالبية العظمى ، وارتباطها الروحى به لا جدال فيه ، ولكن العامل القومى له جذوره العميقة فى الشام ، كما أن تلك المنطقة شهدت مواجهات حادة بين العرب والأتراك ، فى الربع الأول من هذا القرن ، وما زلنا نذكر مشانق « جمال باشا » ، القائد المسلم الملقب بالسفاح ، والذى كان رد الفعل الطبيعى لجرائمه هو تزايد المد العربى ، وليس تصاعد المد الإسلامى ، وهو أمر اقتضى من السوريين واللبنانيين ، على سبيل المثال التركيز على العامل القومى ، وهو العروبة ، فى محاولة لتمييز الذات وإبراز الهوية ، دون التركيز على الإسلام الذى لا يمكن أن يكون هوية لهم فى مواجهة الأتراك المسلمين أيضًا .

أما بالنسبة لمصر ، فإن الأمر يختلف . فالإسلام فى مصر تأثر كثيرًا بالتاريخ الاجتماعى للعصر الفاطمى ، فضلاً عن الأهمية المتزايدة للدين عموما فى التاريخ المصرى قبل الإسلام وبعده ، والمصريون لم يدخلوا فى مواجهات حادة مع خصم مسلم ، مثلما حدث للشام فى مواجهة الأتراك ، فبينما كانت المواجهة هناك دامية وقاسية ، إلا أنها كانت فى مصر مواجهة حكام بين « محمد على » ، الوالى القوى على مصر ، وبين السلطان العثمانى صاحب السيادة الاسمية ، على الأقل ، فى مصر . بل زاد الأمر على ذلك ، إذ كانت مواجهات مصر مع الاحتلال الأجنبى مواجهة مع قوى لا تدين بالإسلام ، سواء أكانت تلك القوى هى فرنسا أم بريطانيا .

بل إننا لا نضيف جديدا ، إذا قلنا إن الحركة الوطنية المصرية ، قبل « سعد زغلول » وثورة

---

(٥) ميشيل عفلق من خطاب ألقاه فى الجامعة السورية بعنوان « ذكرى الرسول العربى » ص : ٥ ـ ٦ دمشق ـ إبريل (نيسان) ١٩٤٣ .

١٩١٩ ، كانت حركة ذات صبغة إسلامية . فقد واجه « أحمد عرابى » ومن بعده « مصطفى كامل » سلطة الاحتلال الأجنبى ، وهما يقفان تحت مظلة أمير المؤمنين ، خليفة المسلمين العثمانى . بل لعلنا لا نزال نذكر كيف خذل الخليفة العثمانى الثورة العرابية فى آخر مراحلها وكان موقفه ضد عرابى فى النهاية واحدًا من أسباب هزيمة العرابيين . كما أن الحزب الوطنى الذى أسسه وتزعمه « مصطفى كامل » ، كان حزبا يحظى برضاء الخليفة العثمانى ، وهو الذى منحه درجة الباشاوية ، دعما له وتأييدًا لاتجاهاته . ولم يتوقف تأثير التيار الإسلامى فى الحركة الوطنية ، إلا بالثورة الشعبية ، التى قادها الوفد المصرى بزعامة « سعد زغلول » الذى طرح بدائل أخرى ، أهمها : الوحدة الوطنية لحركة المقاومة ضد الاستعمار البريطانى والتركيز على ما أطلق عليه فى وقته « القومية المصرية » .

وهكذا نجد دائمًا ، أن الدين والقومية يقفان أحيانا فى مواجهة واضحة ، وفى أحيان أخرى تتداخل مؤثرات كل منهما ، وتتشابك ، بحيث يصبحان تيارًا إسلاميًا عربيًا فى وقت واحد . بل إننى لا أكاد أرى فى الخلاف القائم ، على سبيل المثال ، بين منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس ، إلا نموذجا للتعارض الذى يمكن أن يحدث دون مبرر وفى الوقت نفسه، نرى على الجانب الآخر ، وحدة الموقف العربى الإسلامى تجاه مسألة القدس ، لتؤكد أن التيارين يمضيان فى الاتجاه ذاته ، ويسعيان نحو الهدف نفسه .

وواقع الأمر ، أن من أخطر الأمور على المنطقة العربية ، حدوث مواجهة بين الإسلام والعروبة ، كتلك المؤامرة الكبرى التى تغذى صراعا دائما بين العرب والفرس ، تحت مظلة إسلام واحد ، بينما يؤكد استقراء التاريخ وشواهد الحاضر أن الخلاف مصطنع ، وأن العلاقة بين الطرفين يجب أن تكون إضافة إيجابية لدول المنطقة ، وليست عاملا للانقسام والتمزق والصراع .

إن الدين والقومية ، يتجهان معا نحو جمع الصفوف ، وتوحيد الكلمة ، وليسا مبررًا مصطنعا لإحياء الخلافات و إذكاء الصراعات .

الفصـــل الثـــانى

مــلك العــرب والثــورة الكبــرى

« وكانت مظاهر الفرح تعم دمشق من أقصاها إلى أقصاها ، وأخذ الدمشقيون يقذفون بطرابيشهم فى الجو من شدة تأثرهم وانفعالهم ، والدمشقيات ينزعن النقاب عن وجوههن وينثرن الورد ، وقام الرجال يفرشون الطرقات بالسجاد » .

من مشهد استقبال « فيصل الأول » فى دمشق
لورنس العرب « الثورة العربية »

ملك العرب والثورة الكبرى

« يعتبر قيام الثورة العربية الكبرى ، بقيادة أمير مكة الشريف حسين بن على ، نقطة تحول هامة ، ومنعطفا تاريخيًا رئيسا ، فى رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط ، فضلا عن تأثيره فى الحركة القومية ، والحياة السياسية ، حتى يومنا هذا . فالدور الذى لعبه الهاشميون فى سياسات عدد من الأقطار العربية ، هو نتيجة طبيعية ، لأحداث هذه الثورة العربية الكبرى التى تركت بصماتها على مستقبل هذه الأمة ، حتى يومنا هذا .

والواقع ، أن جذور الحركة القومية الحديثة ، فى المنطقة العربية ، تذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يذكر « جورج أنطونيوس » ، فى كتابه الشهير (يقظة العرب) ـ « أن أول عمل منظم ، فى حركة العرب القومية ، بدأ عام ١٨٧٥ ، بقيام خمسة شباب من الذين تلقوا العلم فى (الكلية السورية البروتستانتينية) فى بيروت ، بتشكيل جمعية سرية . وكان ذلك قبل تولى السلطان عبد الحميد بسنتين ، وكانوا جميعا من النصارى ، إلا أنهم أدركوا ضرورة إشراك المسلمين والدروز معهم ، فاستطاعوا بعد مدة من الزمن أن يدخلوا اثنين وعشرين عضوا ينتمون إلى الطوائف المختلفة ويمثلون خواص المتنورين فى البلاد »[٦] .

وهكذا ، تبدو جذور الفكرة القومية الحديثة ضاربة فى أعماق القرن التاسع عشر ، حيث سبق السوريون الأوائل غيرهم من شعوب الأمة العربية ، فى مواجهة الاحتلال التركى والسيطرة العثمانية .

ولن نمضى طويلاً ، مع أحداث الثورة ويومياتها ، التى أسهب عدد من معاصريها فى وصفها وترديد وقائعها ، إلا أننا نشير بوضوح ، إلى أن الثورة العربية الكبرى ـ فى ظروف الحرب العالمية الأولى ـ كانت هى المواجهة العربية الأولى لعدو ، دون التركيز على العامل

(٦) جورج أنطونيوس ـ مرجع سابق ـ ص : ٧٩ .

الدينى ، لقد كانت مواجهة خارج شرنقة الإسلام ؛ فالعرب والأتراك ينضويان معا تحت مظلة دين واحد ، ولنتأمل معا ما قاله « لورنس » ، ضابط الاستخبارات البريطانية ، الذى عايش أحداث الثورة يومًا بيوم ، وعمل مستشارًا للشريف حسين وأولاده ، ورافق « فيصل الأول » فى دخوله دمشق ، يقول « لورنس » :

« هل تتغلب القومية ، ذات يوم ، على النزعة الدينية ؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطنى المعتقدات الدينية ؟ وبمعنى أوضح : هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحى والإلهام وتستبدل سوريا بمثلها الأعلى الدينى مثلها الوطنى ؟ »(٧) .

ولقد اختلف المؤرخون ، وسوف يظلون على اختلافهم دائما ، فى تقييم أهداف الثورة العربية الكبرى ، وتأثيرها على المستقبل العربى بعد ذلك . فلقد روج الأتراك ، وأيدهم فى ذلك بعض غلاة المسلمين العرب ، لفكرة تجريم فلسفة تلك الثورة ، باعتبارها خروجا على الإسلام ، وتحالفا مع قوى غير مسلمة ، فى مقدمتها بريطانيا ـ صاحبة الكلمة العليا فى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت ـ ضد الخلافة الإسلامية والسلطان العثمانى .

يقول القائد التركى « جمال باشا » فى خطاب له :

« يؤسفنا أن نقول إن إنسانا وضيعا قد سد طريق الجهاد ، بتحالفه فى قلب أراضى الإسلام المقدسة مع الدولة المسيحية ، التى ترمى إلى اغتصاب دين الإسلام ، والاستيلاء على عاصمته . إن هذا الإنسان السافل ، الذى لا يخجل إذ يسمى نفسه بحفيد النَّبى ، صلى الله عليه وسلم ، قد أرغم الدولة العثمانية على أن توجه إليه حملة ، كان الأولى بها أن توجه لدحر البريطانيين فى قناة السويس والقاهرة ، ولم يفعل هذا الخائن فعلته إلا خدمة للبريطانيين ولكنها لن تحول دون ظفر الإسلام فى النهاية »(٨) .

ومهما اختلفت الآراء حول الثورة العربية الكبرى ، فإن ذلك لا يمنعنا من القول بأن تلك الثورة كانت هى المسمار الأخير فى نعش السيطرة العثمانية على الأقطار العربية ، بعد أن دق «محمد على » وأولاده المسمار الأول ، قبل ذلك بقرن كامل من الزمان ، حيث تمتعت مصر قبل غيرها بدرجة من الاستقلال الذاتى عن الخليفة العثمانى ، تحت حكم الأسرة العلوية فى القاهرة .

ولا يمنعنا ذلك من القول بأن كثيرًا من المؤرخين يعتقدون أن الثورة العربية الكبرى كانت

(٧) لورنس العرب ـ « الثورة العربية » ـ ص : ١٢ .

(٨) القائد التركى « جمال باشا » ـ دمشق ـ يناير (كانون الثانى) ١٩١٧ .

محاولة موجهة لتصفية الوجود العثمانى فى المشرق العربى ، موازية لمحاولات أخرى لإنهاء الوجود العثمانى فى مناطق أخرى فى أوربا وآسيا ، فيتحدث الدكتور عبد العزيز الشناوى فى كتابه الشهير عن الدولة العثمانية قائلا :

« أفاقت الحكومات والشعوب الأوربية ، التى خضعت للدولة العثمانية ، لتجد نفسها تخضع لأول مرة فى تاريخها لحاكم مسلم ، ومن ثم عملت جاهدة على تصفية هذا الوجود الإسلامى العثمانى ، من أراضيها ، وأسهمت معها دول أوربية لم يمتد إليها الحكم العثمانى ولكن جمعت بينها وحدة الهدف فى الانتصار للمسيحية ، والقضاء على الإسلام ، ودعم مصالحها الاستعمارية ، بتوزيع الممتلكات العثمانية أسلابا بينها »[٩] .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن مثل هذا التحليل لا يؤخذ على إطلاقه ؛ إذ إنه يهبط بالثورة العربية الكبرى ، من منزلة حركة قومية ضد الوجود الأجنبى ، إلى مجرد تمرد مدبر ، تقف وراءه دول كبرى ، لتصفية الخلافة الإسلامية ، وإنهاء وجود الدولة العثمانية ، لأهداف دينية سياسية ، نقول إننا نتحفظ على مثل هذا الرأى ، لأن دوافع العرب كانت هى ، بالدرجة الأولى ، الاستقلال والخروج من دائرة السيطرة العثمانية ، التى فرضت عليهم قرونا طويلة من التخلف والهوان تحت مظلة الدين . كما أننا نأخذ الثورة العربية الكبرى من منظور آخر يحاول إعلاء كلمة العرب فى إطار الخلافة الإسلامية ، ويرى أحقيتهم بها ، مما جعل « شريف مكة » هو المرشح ، قبل غيره ، لكى يقود تلك الثورة ، معبرًا عن الأمانى القومية للعرب ومنطلقا فى الوقت ذاته من مكانة دينية وروحية .

فلقد ضج العرب ، لعدة قرون ، من سيطرة العناصر غير العربية على الخلافة الإسلامية . واستئثارهم بها ، على الرغم من أحقية أهل البيت بها ، وأهمية العنصر العربى فيها . ولقد بدأ هذا الإحساس مبكرا مع صدر الدولة العباسية ، « فلقد تطورت الممارسات الاجتماعية والسياسية ، فى الإمبراطورية العباسية ، باتجاه مساواة أكبر لغير العرب المسلمين ، الذين انتهى بهم الأمر إلى الصدارة خاصة فى الإدارة ووصولهم إلى قمة المراتب السياسية . . . . ومع أن عددًا من انقلابات السلطة جرى تسجيلها فيما بعد ، فى الإمبراطوريات الإسلامية لصالح المسلمين غير العرب (بداية بالفرس وحتى الأتراك العثمانين) وعلى حساب العرب فإن هذه التغيرات السياسية لم تعدل ، تعديلا أساسيا ، من التمثيلات الاجتماعية المتعلقة بتسلسل مراتب مختلف الفئات النظامية . . وهذا يعنى القول بأن الجماعة العربية المسلمة

(٩) د. عبد العزيز الشناوى « الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها » الجزء الأول - ص : ١٦ .

المتضمنة أفرادًا يجمعون فى آن واحد معا انتماءين عربيا ومسلما ، يجب أن يسيطروا وفقا للكنفسن على المراتب التسلسلية »[١٠] .

ولا يمكن أن نعزل مجريات الأحداث ، فى سنوات الثورة العربية الكبرى ، عن طبيعة الصراع الدائر حولها فى الجزيرة العربية ، فقد « دفع فتح الحجاز بابن سعود إلى مقعد أمامى على المسرح العربى ، فأصبح من ذلك الوقت مهيمنا على سير الأمور فى الجزيرة ، بالدور الذى لعبه فى توجيه تاريخها ؛ فلقد كان الانقلاب الذى حدث ينطوى على أكثر من مجرد تغيير فى الحكم ، لأنه بدل شكل الحياة فى غرب الجزيرة تبديلا أساسيا ، فى نواحيها الخاصة والعامة »[١١] .

والواقع ، أن حركة ابن سعود ، التى تميزت بالحزم والشجاعة ، واستندت إلى ركيزة دينية مستمدة من النزعة الوهابية ، والتى انطلقت من « نجد » لتوحيد أطراف الجزيرة تحت سيطرة رجل واحد ، كان أسلوبها فى الحكم فى بدايته إسلاميا ثوريا ، تحققت بفضله نجاحات باهرة ما كان لها أن تتم لولا شخصية عبد العزيز بن سعود ، الذى أصبح بعد سنوات قليلة رجل الجزيرة القوى ، والذى أدى وجوده بالمقارنة مع حركة الشريف حسين إلى إضعاف موقف الأخير ، واستخدام التحالف بينه وبين بريطانيا وغيرها من القوى الغربية للإقلال من شأنه فى مواجهة الحركة الاستقلالية التى قادها الملك عبد العزيز ؛ إذ « لم يكن نجاح ابن سعود المدهش فى إدارة مملكته ليقل عن نجاحه فى الحرب والسياسة ، فإن مهمة توطيد الأمن ونشر العدالة ووضع أسس التقدم ، كانت شاقة فى تلك المساحة الواسعة من البلاد التى فتحها والتى تعوَّد أهلها الرحل منذ قرون أن يتحدوا كل سلطة خلا سلطة شيوخهم ، وألا يتقيدوا بشىء سوى قانون القبيلة »[١٢] .

ويهمنا ، ونحن نتعرض للثورة العربية الكبرى التى بدأت عام ١٩١٦ ، وقادها الشريف حسين أمير مكة وأولاده ، ومن أيدهم من الزعماء العرب فى الشام ، بدعم من بريطانيا للتخلص من السيادة العثمانية ـ يهمنا أن نشير إلى الملاحظات التالية :

أولاً : لم تكن الثورة ، التى قامت بعد مفاوضات بين الشريف حسين وبين المعتمد البريطانى فى القاهرة منذ أواخر ١٩١٥ ، بداية التمرد على الحكم العثمانى ، بل إن رفض

---

(١٠) لورنت وآنى شابرى « سياسة وأقليات الشرق الأدنى ، الأسباب المؤيدة للانفجار » ترجمة د. ذوقان قرقوط ـ ص : ٣٤ـ٣٥.

(١١) جورج أنطونيوس ـ مرجع سابق ـ ص : ٣٧٠ .

(١٢) جورج أنطونيوس ـ مرجع سابق ـ ص : ٣٧٧ .

العرب لمظاهر ذلك الحكم أسبق من ذلك بكثير ، وربما أسبق أيضا من النزعة الاستقلالية لمحمد على فى مصر . « فالحركات الانفصالية ، التى قامت فى بعض الولايات العربية ضد السيطرة العثمانية ، كانت تعبر عن بعض مظاهر نمو الوعى السياسى ، وربما لم يكن ذلك مرتبطا بمجىء الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام ١٧٩٨ ـ كما يزعم بعض المؤرخين ـ بل كان قبل مجىء الحملة الفرنسية بمدة تزيد عن ربع قرن »(١٣) .

بل إننا نذكر أيضًا حدثا له دلالته ، وهو انعقاد أول مؤتمر عربى استقلالى بباريس عام ١٩١٣ ، أى قبل قيام ثورة الشريف حسين بأكثر من ثلاثة أعوام ، إذ انعقد ذلك المؤتمر الفريد من نوعه ، ليضم أبناء الجالية العربية فى فرنسا ، فى شهر يونيو من ذلك العام . وكان معظم المشاركين من سوريا . ويلاحظ أنه لم يضم عضوا واحدا من مصر فى ذلك الوقت . وقد قرر المؤتمر فى نهايته أن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية ، وأنه لابد من ضمان تمتع العرب بحقوقهم السياسية ، وذلك بأن يشتركوا فى الإدارة المركزية للدولة العثمانية اشتراكا فعليا »(١٤) .

وهكذا ، نشهد أن التمرد على السيطرة العثمانية ، لم يبدأ بالتدبير الذى تم عبر المكاتبات الشهيرة ، والمراسلات المعروفة ، بين الشريف حسين والمندوب السامى البريطانى فى مصر السير « هنرى ماكماهون » ، وهى التى اتفق فيها الطرفان على قيام العرب بالثورة ضد الأتراك ، فى مقابل تحرير بلادهم من السيادة العثمانية .

ثانيا : لقد كان موقف الشريف حسين ، والسابقين له على نفس الطريق ، يتحرك فى اتجاه يتواكب مع حركات انفصالية أخرى ، فى أجزاء مختلفة من الإمبراطورية العثمانية ، حيث اتسع نطاق الحركات القومية فى القرن الأخير من حكم العثمانيين ، أو ما نطلق عليه مرحلة احتضار « الرجل المريض » ، وظهرت نزعات مماثلة بين شعوب الصرب والبلغار والبلقان وغيرهم من قوميات شرق وجنوب أوربا ، ودخلت نهاية الدولة العثمانية طرفا مباشرًا ، فى مقايضات سياسية وحسابات علوية ، بين القوى الأوربية الكبرى فى ذلك الوقت ، ومن ثم ، فإنه يمكن فهم حركة الشريف حسين ـ برغم دوافعه القومية ، وطموحاته الشخصية على ضوء النصر السريع الذى تحقق للحلفاء فى الميدان الشرقى . فقد أحدثت ثورة العرب تحولات كبيرة فى مجريات الحرب فى الشرق العربى ، وتعطلت مواصلات الأتراك ، وحوصرت حامياتهم ، واعتمد « أللنبى » على الجيوش العربية تحت قيادة فيصل بن حسين »(١٥) .

---

(١٣) د. محمد عبد السلام الشاذلى ـ « تطوير الفكر العربى » ـ ص : ٨ .

(١٤) إبراهيم العريس ـ « ذاكرة القرن العشرين » ـ صحيفة الحياة ـ ٢١ يونيو (حزيران) ١٩٩٣ .

(١٥) موسوعة الشروق ـ الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ ـ القاهرة ١٩٩٣ (تحت الطبع) .

وحين أصبحت جيوش فيصل على مقربة من دمشق فى سبتمبر ١٩١٨ ، حيث دخلها مع « اللنبى » وصحبهم ضابط الاستخبارات البريطانية ، والشاهد الأوربى على الثورة العربية الكبرى ـ « فتح أهل دمشق أبوابهم فى وجه الجيش العربى ، وقابلوه بالتهليل والتكبير والترحاب العظيم » (١٦) .

ثالثا : إن تقييم ثورة الشريف حسين ، بين مؤيديه وخصومه ، مازال يتأرجح حول الدور البريطانى وراءه ، وكيف استغلت تلك القوة الاستعمارية الكبرى فى وقتها مكانة الشريف الدينية وطموحاته العائلية ، لكى تحقق أكبر قدر من الاستفادة لمواقع الحلفاء ، ولتحقيق انتصاراتهم على الجبهة العربية فى الحرب العالمية الأولى . ولم يكن ذلك يتحقق للشريف وأولاده ، ولا لبريطانيا وحلفائها ، لو لم تكن صورة الأتراك مقيتة فى أعين العرب الذين قاسوا طويلا من قسوة الحكم العثمانى ، وظلم الجنرالات الذين توفدهم عاصمة الخلافة ، للتحكم فى الأقاليم التى تخضع لسيطرتهم .

رابعا : ليس لدينا شك ، فى أن حركة ابن سعود وانتصاراته وحزمه ، كان لها تأثيرها فى إبعاد الشريف حسين عن الجزيرة العربية ، بعد أن خلعه الأتراك من منصبه الدينى الرفيع وأحلوا بديلاً عنه أحد أقربائه . لذلك ، كان طبيعيا أن يجد الشريف وأولاده ترحيبًا وهم يتجهون إلى عواصم المشرق العربى ، ليقفوا على قمة السلطة فيها ، ومن لم تكن له دولة جاهزة تم إنشاؤها له ، ولعل ذلك يؤكد البعد العروبى للثورة ضد الأتراك خصوصا من جانب عرب الشام الذين يتلهفون دائمًا على كل نزعة عربية ، ويساندون كل اتجاه قومى .

خامسا : لقد كانت مصر ـ أكبر الدول العربية ـ بعيدة عن روح الثورة العربية ، حيث نظر إليها المصريون بكثير من التحفظ والحذر ، لأنهم كانوا منغمسين فى مواجهة حادة مع الاحتلال البريطانى لمصر فى ذلك الوقت ، إلى جانب شعورهم بأن الأتراك ليسوا هم العدو الأصلى ، فقد كانوا ينحدرون نحو النهاية بحكم ضعف الدولة وتدهورها . إنما الخطر الحقيقى ، يأتى من أطماع أوربا الاستعمارية ، التى قسمت العالم العربى إلى مراكز نفوذ ومواقع احتلال ، يقول جورج أنطونيوس فى كتابه :

« لم يحدث نبأ قيام الثورة العربية أثرًا كبيرًا فى مصر فى بادئ الأمر ، حتى أن الدوائر التى كانت تميل إلى تركيا ، تلقته بعدم قبول ، وحاولت جرحه بالإقلال من شأنه . وقد كان عداء

---

(١٦) لورنس العرب ـ مرجع سابق ـ ص : ٢١٣ .

المصريين للثورة حقيقيًا ، فقد غذاه الشعور بكراهية بريطانيا إلى جانب شعور التعاطف مع الترك » (١٧) .

. . ومهما اختلفت الآراء حول الثورة العربية الكبرى ، إلا أنها تمثل فى نهاية الأمر انتفاضة قومية ضد السيطرة الأجنبية ، حتى ولو كان قد أسىء استخدامها ، وتم توظيف نتائجها لصالح أطراف أخرى . فهى تبقى ، فى ضمير الأمة العربية ، محاولة شجاعة من الشريف الذى كان يطمع أن يكون ملك العرب ، كل العرب ، ولكن اللعبة كانت أكبر منه ، وكان دوره فى الحسابات المعقدة ضئيلاً ، ولا يتناسب مع أحلامه ، ولا يرضى آماله .

(١٧) جورج أنطونيوس ـ مرجع سابق ـ ص : ٢٣٢ .

الفصـــل الثـــالث

الشـــام والفـــكر القـومى

طلب أنطون سعادة « لحظة تنفيذ حكم الإعدام فيه » أن يسمح له بالإدلاء بتصريح سياسى فقيل له إنه ليس من صحفيين ، ولا فائدة من التصريح على كل حال ، فأجاب بأنه يرغب فى تسجيله للتاريخ ، ولو فى محضر تنفيذ الحكم فأذن له ، فقال : « إننى أعتبر أن مؤامرة واسعة كانت ضدى وضد حزبى ، ولكنى أنظر إلى الذين حكموا على بالإعدام ، وإلى الذين سيعدموننى ، نظرة ازدراء» .

هشام شرابى
« الجمر والرماد »
ذكريات مثقف عربى

الشـام والفـكر القـومى

يحلو لى استخدام كلمة « الشام » ، تعبيراً عن منطقة شمال المشرق العربى ، ذلك لأن لهذه الكلمة مدلولها التاريخى الذى ارتبط بالدولة الإسلامية الأولى ، فى دمشق ، منذ انتهاء حكم الخلفاء الراشدين . وللشام إسهامه الضخم فى التاريخ العربى ، ودوره المحورى فى الفكر القومى ، حتى يمكن القول دون تجاوز ، بأن العروبة التى انطلقت مع الإسلام من أرض الجزيرة ، تبلورت عناصرها واكتملت ملامحها على أرض الشام .

وكان دور مصر والعراق ، وغيرهما من الأقطار العربية ، هو الامتداد بذلك الفكر القومى ، والمزج بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارات القديمة ، التى رسخ وجودها فى تلك الأقطار قبل الفتح الإسلامى .

وعلى كل حال ، فإننا لا نكاد نذكر حركة عربية ، أو فكرا قوميا ، إلا وكان الشام مصدر ذلك ، فإن لم يكن ، فهو المناخ الذى احتضنه وامتد به وأثرى جوانبه ، ويكفى أن نتأمل كتاباتٍ بعض الرواد فى الحركات القومية المختلفة للمشرق العربى . .

فهذا واحد من الرعيل الأول ، الذى يعتبر فكره التمهيد الطبيعى لحركة البعث ، يقول : «مهما انحرف المجتمع العربى عن أصولهُ ، وزاغ العرب عن محور شخصيته ، تبق العروبة متصلة بالينبوع ، مستمدة منه نسج الحياة ، إن الأمة العزبية لم تكن شهابا قد خطف البصر بسرعته ، بل إنها منارة يتموج شفقها تموج الحياة التى عبرت عنها » (١٨).

والقوميون ، بمختلف اتجاهاتهم وتعدد منطلقاتهم ، يقفون تحت مظلة فكر قومى ، يجعل قضية العروبة هى المحور الذى يرتكزون عليه ، وتتحدد به مواقفهم قربا أو بعدا عنها لذلك ولا ننسى دور الروح القومية التى انتشرت لدى المثقفين العرب ، وبخاصة فى الشام ، وتأثيرها فى تقويض دعائم الحكم التركى ، والتمهيد لنظام عربى جديد منذ نهاية القرن الماضى (١٩).

---

(١٨) زكى أرسوزى « بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم » الجزء الأول ـ ص : ٢١ .

(١٩) أحمد عبد الرحيم مصطفى « فى أصول التاريخ العثمانى » دار الشروق ـ القاهرة ـ ص : ٢٥٨ .

ويهمنى أن أشير هنا إلى نقطة محورية ، تساعدنا كثيرًا فى تفهم المسئولية القومية للشام والدور التبشيرى بالعروبة الذى حمل ألويته مثقفون ومفكرون وسياسيون فى أرجائه المختلفة وهى أنهم عروبيون بالطبيعة ، وحدويون بالفطرة . لذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن تزدحم الساحة السياسية على أرض الشام ، منذ مطلع هذا القرن ، بعشرات الأحزاب السياسية ، والتنظيمات الشعبية العاملة فى حقل الوحدة ، الساعية إليها ، ورغم اختلاف توجهاتها النهائية ، إلا أن القضية القومية كانت بالنسبة لها هى المحور ، والركيزة ، ونقطة الانطلاق .

ولو أننا حاولنا أن نقوم بمسح موجز لأبرز الاتجاهات السياسية ، التى ضمها وعاء العروبة، فإننا سوف نواجه بعدد كبير منها ، ولكننا نختار ما يعبر عن اتجاه متميز وفكر مختلف .

ولاشك ، أن الحزب السورى القومى يمثل أسلوبا خاصا ، يركز أساسا على سوريا الكبرى ، واعتبارها قومية مستقلة . فقد استند على فكر مؤسسه « أنطون سعادة » ، الذى كان يتنقل بين الشام ودول المهجر فى أمريكا اللاتينية ، خلال الثلاثينيات والأربعينيات . وإذا كنا نستطيع أن نصنف فكر « أنطون سعادة » على أنه توجه قومى خاص ، إلا أننا لا ننكر أنه يعبر عن اتجاه وحدوى ، يضم منطقة الشام التى أطلق عليها « سوريا الكبرى » وكان مشروعه الحزبى هو إقامة دولة « الهلال الخصيب » ونجمته هى « قبرص » ، ولذلك فإننا نعترف بأن فكر «سعادة » مازال يمثل مرحلة فى الأساس النظرى للمجالس الوحدوية التى عرفها الوطن العربى فى سنواته الأخيرة .

ولكن يعيب فكر « سعادة » أنه اختزل مفهوم الوحدة العربية ، ليصبح مفهوم الوحدة السورية ، إذ يقول صراحةً : « أما الحزب السورى القومى ، فهو القوة الوحيدة التى نشأت من صميم الشعب السورى ، لتحقق استقلال سوريا وسيادتها القومية » [٢٠].

لكن دعنا نتأمل أيضًا ما قاله « أنطون سعادة » ، منذ قرابة نصف قرن :

« تمتاز سوريا ، فى العصر الحاضر ، بأنها بلاد تضم عالمين مختلفين ، يزحم أحدهما الآخر ويتصادمان ، ولابد من سقوط أحدهما لا قيام له بعده ، هذان العالمان هما عالم النهضة القومية ، الذى رأى النور فى سوريا ، وأخذ يغذى أمم العالم العربى بمبدأ القومية الذى يعنى مبدأ التقدم والارتقاء . وعالم التقاليد الرجعية ، الدينية والإقطاعية ، الذى أنشأ لنفسه منذ

(٢٠) أنطون سعادة « فى السياسة الدولية والوضع السورى » (١٩٢١ ـ ١٩٤٩) ص : ١٥٦ .

القدم حصونًا قوية فى سوريا ، يدافع فيها عن مبدأ الدولة الدينية أو الثيوقراطية ، وينادى أمم العالم العربى للتشبث به .

بين هذين المبدأين ، يجرى الآن صراع هائل ، يتوقف على نتيجته ليس فقط مصير سوريا ، بل مصير الشرق العربى اللسان » (٢١).

وإننى ، على الرغم من مصريتى ، ويقينى أن « أنطون سعادة » كان ينظر بتحفظ شديد للسياسة الإقليمية المصرية ، على نحو ما سوف نوضحه فى فصل قادم ، إلا أننى لا أجد غضاضة فى أن أقول : إن الجانب الفكرى لدى الحزب السورى القومى لا يستحق التجريم . بل إننى أكاد ألمح حاليًا محاولات رد الاعتبار لفكر الحزب وزعيمه ، على المستويين النظرى والتطبيقى ، ويكفى هذا الحزب فخرًا حساسيته وزعيمه تجاه جزأين تم اقتطاعهما من أرض الشام العربية ، حيث سلخ الأتراك إقليم الإسكندرونة ، وقامت دولة إسرائيل على أرض فلسطين :

« لقد سمحت السياسة لأعداء الأمة السورية بالتمكن من سلخ قسم ثمين من جنوب الوطن السورى ، كما سمحت لهم بسلخ قسم ثمين من شماله » (٢٢).

ويمكن الرجوع ـ لاكتشاف التشدد القومى لأنطون سعادة وحزبه ـ إلى تعليق له على مقال لمؤسس البعث « زكى أرسوزى » حيث قال الأخير :

« من رأيى ، أنه يجب أن يتفاهم العرب واليهود فى العالم ، ويتعاونوا لإعادة مجد العرب وتحقيق العبقرية السامية ، وهى العبقرية العربية ـ اليهودية » (٢٣).

وهنا نتأكد من صدق حس « سعادة » القومى ، وإحساسه بالمخاطر المحيطة ببلاده حين نتأمل تعليقه قائلاً :

« قضية اليهود الصهيونية تختص بسوريا الطبيعية كلها ، واليهود يرمون إلى التوسع باستمرار ، إلى أن يستولوا على سوريا الطبيعية ، ويقيموا فيها دولة قوية » (٢٤).

وهو نفسه أيضا زعيم الحزب السورى القومى ، الذى وضع الأساس النظرى للعلاقة

---

(٢١) المرجع السابق ـ ص : ١٥٧ .

(٢٢) أنطون سعادة « مختارات من المسألة الفلسطينية » ص : ١٥٢ .

(٢٣) من مقال لزكى أرسوزى ، فى معرض رد أنطون سعادة عليه فى كتابه « مختارات فى المسألة الفلسطينية » ص : ٧٣ .

(٢٤) أنطون سعادة ـ « مختارات فى المسألة اللبنانية » ـ ص : ٢٠٢ .

الوثيقة بين الكيان اللبنانى والكيان السورى الكبير ، وأبرز الارتباط القوى بين الشعبين . فهو الذى كان يردد :

« إن الدولة اللبنانية هى شخصية سياسية ، لا تقوم فى قطر قائم بنفسه من الأرض بالمعنى الجغرافى الطبيعى ، ولا فى شعب منفصل فى وحدة حياته الاجتماعية والروحية والتاريخية فالشعب اللبنانى مندمج فى وحدة حياة الشعب السورى لأنه من صميم هذه الوحدة الحياتية » (٢٥).

لذلك ، لم يكن غريبا أن يدفع حياته ثمنا لفكر لا يرضى الجميع ، حيث انتهت حياته فى مشهد حزين . . ورحل زعيم ، ليته توقف عند حدود الفكر ، وترك لأجيال قادمة مهمة الوثوب إلى السلطة .

فإذا كان التخوف المسيحى ، الحريص على الكيان اللبنانى ، قد شارك فى مقاومة فكر الحزب السورى القومى وإنهاء حياة زعيمه ، فإن الأغلبية المسلمة فى المنطقة كانت أيضًا تنظر إلى الفكر والزعيم بريبة واضحة ، وقلق شديد ، لأنه حاول جاهدًا أن يوجد مضمونا قوميا تقف حدوده المرحلية عند وحدة سوريا الكبرى ، ولم يتحمس لرابطة دينية أو عامل روحى يجمع شتات العرب . فهو الذى قال :

« أوجدت مبادئ الحزب السورى القومى العامل الروحى الاجتماعى الثقافى ، الذى يتمكن من صهر الجماعات الدينية والأثنية فى سوريا ، وتحويلها إلى عناصر متجانسة متلاحمة فى صلب الأمة السورية » (٢٦).

وهو نفسه ، الذى كان يردد مقولة استفزازية لدعاة التيار الإسلامى ؛ فهو يقول فى واحد من أهم كتبه التى ضمنها خلاصة فكره : « لم يترك محمد دستورًا للدولة ، فهو قد أتم الدين ولكنه ترك الدولة تهتم بمصيرها . ولما كانت الخلافة أول وأقوى سلطة فى الإسلام ، خصوصا من الجهتين التنفيذية والإدارية ، فقد أصبحت قبلة أنظار الطامحين إليها » (٢٧).

بل إن أغرب ما فى الأمر أيضًا ، أن « سعادة » لا يكتفى بهذا الموقف السلبى من العامل الدينى فى فكره القومى ، بل يتجاوز ذلك إلى إبراز خصوصية إسلامية فى الإطار السورى

---

(٢٥) المرجع السابق - ص : ١٦٦ .

(٢٦) أنطون سعادة - « مختارات فى أوضاع سوريا » - (١٩٢١ - ١٩٤٩) ص : ١٧٠ .

(٢٧) أنطون سعادة - « الآثار الكاملة - نشوء الأمم » - ١٩٣٨ - ص : ١٢٦ .

الكبير ، ويختص الأمويين بصفات تجعل الدولة الإسلامية الأولى أميز عن غيرها ، وأشد تسييسا من الدول التى تلتها . فهو يقول :

« إن الفضل فى إيجاد الاتجاه السياسى الدنياوى فى الدولة الإسلامية يعود إلى الدولة الإسلامية السورية الأموية . . . . وإنه لمن الثابت أن الدولة السياسية فى الإسلام كانت الدولة السورية الأموية ، فلما انتقل الأمر إلى العباسيين عادت الوجهة الدينية والعوامل الفقهية إلى السيطرة» (٢٨).

ويجمل وجهة نظره تجاه المسألة الدينية فى النهاية بموقف صريح ، إذ يقرر أن : « الرابطة الدينية ، لها قيمة فعلية فى الشئون الدينية البحت فقط ، أما شئون الحياتين الاجتماعية والاقتصادية وتقدم الأمم ، فالرابطة القومية هى الرابطة الوحيدة التى تكفل حرية الأمم وحقوقها » (٢٩).

وخلاصة القول ، أن الحزب السورى القومى قد عبر بشكل مباشر عن قومية سورية ، فى إطار قومية أشمل وأكبر تحتوى العرب جميعا . وقد أوضح سعادة » ذلك حين قال :

« فنحن ، حين نقول (العالم العربى) ، نعنى هذا العالم الذى يتكلم اللسان العربى ونحن منه . وهذا التفسير يوضح كيف أن سوريا يمكن أن تكون إحدى الأمم العربية وتبقى أمة متميزة بمجتمعها ، وتركيبها الأثنى ، ونفسياتها ، وثقافتها ، ونظرتها إلى الحياة والكون والفن » (٣٠).

ونحن ، إذا كنا نشير إلى نقاط الضعف فى فكر « سعادة » من منظور إسلامى ، فإننا أيضًا نعطيه حقه من منظور قومى ، ونرى أن فكر الحزب القومى السورى الذى ردت إليه نظم سياسية عربية بعض الاعتبار ، إنما يمثل مرحلة متقدمة على طريق تطور الفكرة القومية فى الوطن العربى .

ولعل التقييم الموضوعى لفكر الحزب السورى القومى - برغم كل ما أثير حوله من لغط وما لحق بصورته من تشويه - يمثل مرحلة بذاتها ، تعطى منطقة الشام مفهوما سياسيا نعبر عنه بدولة « الهلال الخصيب » فى « سوريا الكبرى » .

ولاشك أن أضعف النقاط فى تاريخ ذلك الحزب ، هى لجوءه إلى العنف ، ومحاولاته تغيير

---

(٢٨) المرجع سابق - ص : ٢٥٦ .

(٢٩) أنطون سعادة - « فى مغتربه القسرى » - ١٩٤٠ - ١٩٤٢ ص : ٢٥٦ .

(٣٠) أنطون سعادة - المحاضرات العشر - ١٩٤٨ - ص : ٧٥ .

الأوضاع فى لبنان بالقوة ، وهو ما أدى بزعيم الحزب إلى ساحة الإعدام ، وتبع ذلك سلسلة اغتيالات ردت بها بعض كوادر الحزب ، تصفية لرموز سياسية ، اعتبرت أنها هى التى وقفت وراء الحملة الضارية ضد الحزب وزعيمه .

ولست أرى ، فى التفكير المرحلى لأمل الوحدة ، ما ينتقص من البعد القومى لفكر عربى معين ، فلقد رفعت مصر لسنوات طويلة شعار « وحدة وادى النيل » ، دون أن يكون ذلك بالضرورة خصما من انتمائها العربى الشامل ، أو دورها القومى المستمر . ولقد حان الوقت للقيام بمراجعة لتاريخنا القومى ، بموضوعية وتجرد ، دون أن نكرر صياغات محفوظة ، ونلتزم بمواقف صماء خلقت لنا أصنامًا قومية ، وحطمت أمامنا نماذج فكرية لأسباب تتصل باعتبارات سياسية ، أو أهواء قطرية . فالعروبة إطار شامل ، يستوعب اجتهادات عديدة وأفكارًا شتى ، والحزب السورى القومى يحتاج إلى نوع من الدراسة الأمينة ، والمراجعة التى لا يحكمها هوى ، ولا يقف وراءها موقف مسبق .

والآن ، نتنقل من تجربة هذا الحزب ، إلى واحد من أكبر الأحزاب تأثيرًا فى الحياة العربية المعاصرة ، حيث أتيحت له فرصة الممارسة العملية فى الحكم ، من خلال قطرين عربيين كبيرين ، وأعنى به حزب « البعث العربى الاشتراكى » . وهو حزب لعب دورًا ممتدًا على مسرح الأحداث العربية ، عبر العقود الخمسة الماضية ، كما دخل ذلك الحزب فى مواجهة صامتة ومنافسة مكتومة ، مع الفكر الناصرى ، بتوجهاته القومية المعروفة خلال النصف الثانى من الخمسينيات ، وكل سنوات الستينيات . بل إن تجربة الوحدة ، وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ثم الانفصال الذى شطر إقليميها ، كل ذلك كان تعبيرا عن الشد والجذب بين شعبية عبد الناصر الكبيرة من جانب ، وفاعليات حزب البعث النشطة من جانب آخر .

والحزب ـ كما هو معروف ـ نشأ تعبيرًا عن مرحلة توارى فيها الوجود التركى من المنطقة واتجهت فيها سوريا ـ منبع الفكر القومى ، ومصدر الحركات العروبية ـ نحو الاستقلال متطلعة لممارسة دور مؤثر فى السياسات الإقليمية ، ولقد استند فكر الحزب على أسس داخلية وخارجية ، وخضع لمؤثرات فكرية وعملية ، كما نجح منذ البداية فى الوصول إلى مكونات المؤسسة العسكرية ، ومارس السياسة على مستوى النظرية والشارع فى وقت واحد . ولنتجول قليلاً بين الجوانب المختلفة للأساس النظرى لذلك الحزب .

يقول مفكره الأول زكى أرسوزى : « لقد تسلط الأجنبى على مؤسستنا القومية

وحرفها عن غايتها ، حتى نفذ إلى مصيرنا ، فأخضعنا لمشيئته إخضاعا فقدنا به إنسانيتنا » (٣١).

أما « ميشيل عفلق » فهو فيلسوف الحزب الشهير ، الذى واصل المسيرة مع رفيقه « صلاح البيطار » ، واجتازا المراحل المعروفة لقيام الوحدة ، والمباحثات التمهيدية لمحاولة استعادتها بعد الانفصال بسنوات قليلة ، إذ دخل الحزب بجناحيه ، فى سوريا والعراق ، فى مفاوضات مع نظام عبد الناصر فى القاهرة ، حيث تعتبر المساجلات المتبادلة بينهم التعبير الحقيقى عن مرحلة هامة للحوار القومى ، فى تاريخنا العربى المعاصر . يقول عفلق : « لقد تبدل القلق الخارجى لنفس العربى الجديد ، وحل محله القلق الداخلى ، كما تبدلت عزلة المكان ووحشة الزمان ، بعزلة عن الفكر ، ووحشة فى النفس والضمير ، فلم يعد الرجل يطمئن بسهولة إلى قيمة أعماله » (٣٢).

وهو الذى وضح ، فى موضع آخر ، الدور العربى لسوريا فى الإطار القومى الذى يؤمن به حزبه :

« ما دام لنا هذا الشعار (أمة عربية واحدة - ذات رسالة خالدة) ، فإننا لن نخشى أن ينسينا الجلاء عن سوريا واجبنا نحو أقطارنا العربية الأخرى ، التى لم تتحرر بعد فى المشرق والمغرب . . إن شعار البعث العربى (ليس ألفاظا فارغة مرصوفة ، بل حقيقة راهنة حية فالإيمان بوحدة الأمة العربية فى حاضرها وماضيها هو الذى أتاح لسوريا أن تستقل وأن تجلى الأجنبى عن أرضها » (٣٣).

وهو أيضًا الذى شرح موقف حزبه من الحركة الشيوعية العالمية وطبيعة الخلاف بينهما ، إذ يقول :

« إن حزبنا حزب انقلابى قومى ، يطرح حلا وحيدًا ويرفض كل ما عداه . والشيوعية هى أيضًا انقلابية لها حلها الذى لا تتنازل عنه ، إلا أنه حل أممى يرتبط بمبادئ وأهداف الشيوعية العالمية ، وهذا هو أول صدام وتعارض أساسى ، يحول دون اشتراكنا مع الشيوعية فى سياسة طويلة الأمد » (٣٤).

---

(٣١) زكى أرسوزى « بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم » - الجزء الأول - ص : ٢٠ .

(٣٢) ميشيل عفلق - « فى سبيل البعث » - ص : ٤٦ .

(٣٣) ميشيل عفلق - « فى السياسة العربية » - ص : ٦٧ .

(٣٤) ميشيل عفلق - جمال الأتاسى - « موقفنا السياسى من الشيوعية » ١٩٥٧ - ص : ٥٨ .

وهو أيضًا الذى يدخل دائرة المحظور ، حين يتطرق إلى دور المسألة الدينية فى فكره القومى . وعلى الرغم من صعوبة موقفه ، بحكم انتمائه الدينى [٣٥] ، إلا أنه حدد ـ وعدد من رفاقه فى الحزب ـ علاقة الدين بالقومية من وجهة نظرهم :

« والعرب اليوم لا يريدون أن تكون قوميتهم دينية ، لأن الدين له مجال آخر ، ليس هو الرابط للأمة ، بل هو على العكس قد يفرق بين القوم الواحد ، وقد يورث ـ حتى ولو لم يكن هناك فروق أساسية بين الأديان ـ نظرة متعصبة وغير واقعية » [٣٦].

وعلى ذلك ، فإن حزب البعث العربى الاشتراكى ، الذى اكتمل بناؤه السياسى وهيكله التنظيمى ، فى مطلع الخمسينيات ، بالاندماج المعروف بين حزب البعث العربى والحزب العـربى الاشتـراكى ـ أقول إن هذا الحزب قد تجاوز تأثيره فى الحركة القومية ، والسياسة العربية ، حدود الحجم المعروف لشعبيته ، بوصول جناحيه إلى السلطة فى سوريا والعراق وهو أمر لم يتحقق لحزب سياسى ذى توجه قومى ، فى المنطقة العربية كلها . ومهما اختلفت الآراء حـول تقييـم الحزب فكرًا وممـارسة ، إلا أن الخلاف لا يثور إطلاقًا حول أهمية دوره وشدة تأثيره .

فإذا ألقينا نظرة على الساحة القومية ، على أرض الشام الكبير ، صادفنا عددا من التنظيمات الأخرى ذات التأثير الأقل ، مقارنة بالحزبين السابق الإشارة إليهما . فهناك حركة الاشتراكيين العرب ، التى بدأت مع مطلع الخمسينات كتعبير عن فكر الوحدويين الاشتراكيين ، والتى ما زالت تمارس دورها من خلال الجبهة القومية الحاكمة فى سوريا بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى . يقول أمين عام الحركة :

« يقوم حزبنا أو حركتنا على مبادئ معلنة على شكل دستور انبثق عن المؤتمر التأسيسى عام ١٩١٥ ، ولم نجر عليه أى تعديل أو تطوير ، حتى الآن . وتنص المادة الأولى من الدستور على أن الحزب العربى الاشتراكى حزب قومى اشتراكى ديموقراطى » [٣٧].

---

(٣٥) ميشيل عفلق ، المسيحى العربى ، الذى عبر عن فكر أكثر الأحزاب السياسية تأثيرًا فى الحركة القومية الحديثة فى الوطن العربى حيث كان «البعث » هو الرصيد القومى التالى مباشرة لتوجهات « مصر عبد الناصر » من حيث الشعبية وقوة التأثير. إن هذا المفكر ، الذى دخل فى صراعات متصلة وخلافات حادة ، انتهت حياته فى بغداد ، منذ سنوات قليلة . وكان غريبا ـ من نظم لها ركائزها العربية ومنطلقاتها القومية ـ أن تعلن أن « عفلق » قد تحول إلى الإسلام دون إعلان قبل وفاته بسنوات ، وكأنها كان يعبر بذلك عن اعتذار عما لا يجب الاعتذار عنه ، فالأساس فى الفكر القومى أنه لا ينظر إلى المنتمين إليه بعقائدهم الروحية ، ولكن بالفكر الذى يؤمنون به ، والممارسة السياسية التى تعبر عن ذلك الفكر .

(٣٦) ميشيل عفلق وآخرون ـ (أكرم الحورانى ، منيف الرزاز ، جمال الأتاسى) ـ حول القومية والاشتراكية ـ ص : ١٧ .

(٣٧) عبد الغنى قنوت ـ أمين عام حركة الاشتراكيين العرب ـ صحيفة الحياة ـ ٦ يونيو (حزيران) ١٩٩٣ .

وحتى إذا تجاوزنا حركة الوحدويين الاشتراكيين وحزبها ، فسوف نجد حركة القوميين العرب بدورها المؤثر على ساحة العمل القومى ، خصوصًا فى الخمسينيات ، والستينيات ثم تأثيرها بعد ذلك على العمل الفلسطينى ، ودورها فى الكفاح المسلح وصولا للحقوق المشروعة لذلك الشعب الصامد .

وبالإضافة إلى كل هؤلاء ، لا نغفل دور اليسار القومى العربى الذى أجرى مصالحة تاريخية صامتة بين الفكر الاشتراكى ، والقومية العربية ، وانصهر فى مراحل كثيرة داخل أتون الحركة العربية الواحدة .

ويهمنى ، وقد تعرضنا فى إيجاز لعملية انتقاء بين الرموز الأساسية للتيارات القومية المعاصرة ، على ساحة الشام الكبير ـ يهمنى أن أرصد بعض الدلالات فى ثلاث نقاط هى :

أولا : إن إحساس السوريين بدورهم القومى المرموق تاريخيًا ، قد جعل لهم خصوصية واضحة فى هذا المجال ، حتى أصبحوا تلقائيا طليعة للعمل القومى . وحتى الحزب السورى القومى ، بشخصيته الفريدة ، يعتبر إضافة قومية ، رغم استناده إلى إستراتيجية مرحلية .

ثانيا : لقد نشأ حزب البعث العربى الاشتراكى ، تجسيدًا للفكر العربى عندما فقدت حركة القوميين الأوائل قوة دفعها لاعتبارات عديدة ، وكان النضال ضد الخطر الإسرائيلى واحدًا من العوامل الأساسية فى مشروعية الحزب وأسباب نشأته (٣٨).

ثالثا : يمثل لبنان ، بتجربته الذاتية ، وشخصيته المتميزة ، حلقة وصل فريدة بين الشام، والتيارات الغربية المختلفة . وترتكز معظم المطاعن فى حسه العروبى واتجاهه القومى على مناخ التعددية التى عرف بها ، والطائفية التى عانى منها ، حتى أن إسرائيل بنت توقعاتها تاريخيا على أن يكون لبنان هو أول دولة عربية تقيم سلاما دافئًا معها ، وظل الأمل مستمرًا لديها ، حتى بعد توقيع اتفاقية السلام الإسرائيلية ـ المصرية . ونستعير هنا قول سياسى لبنانى معاصر :

« إثر الاجتياح الإسرائيلى عام ١٩٨٢ ، خيل لإسرائيل أن حرب لبنان هى الفرصة المواتية لتطوير معاهدة كامب ديفيد ، بضم لبنان إليها ، فتتحول من معاهدة ثنائية بين إسرائيل ومصر إلى اتفاق مثلث الأطراف بين إسرائيل ومصر ولبنان » (٣٩).

---

(٣٨) د. عبد العظيم أنيس ـ « مستقبل الفكر القومى » مقال فى مجلة الهلال ـ القاهرة ـ إبريل (نيسان) ١٩٩٣ .

(٣٩) كريم براقدونى ـ « لعنة وطن ـ من حرب لبنان إلى حرب الخليج » ص : ٦٨ .

الفصـــل الـــرابـــع

المصــريــون وقضيــة العــروبــة

« إنى لا أعترض على من يقول (مصر أولاً)
لأنى أعتقد اعتقادا جازما بأن كل من يفكر فى
مصالح مصر الحقيقية ـ تفكيرًا مقرونا بالتبصر
والتعمق والإحاطة ـ يصل فى آخر الأمر إلى
الحكم بأن مصر عربية » .

ساطع الحصرى (أبو خلدون)

المصـريون وقضيـة العـروبـة

تعتبر مسألة عروبة مصر قضية مفتوحة حتى هذه اللحظة ، وما زال هناك من يجادل فى داخل مصر وخارجها فى أولوية العروبة على غيرها من أركان الهوية المصرية ، ومظاهر التعددية فيها . وإذا كان عامل اللغة هو الفيصل فى تحديد قومية الأمم وشخصية الشعوب فإن الأمر بهذا المفهوم يكون محسوما ، فمصر أصبحت عربية اللسان ، يوم أن قبلت «الكنيسة القبطية » ، مع بدايات العصر الفاطمى ، إقامة الصلوات باللغة العربية ، وترجمة النصوص المقدسة إليها . منذ ذلك الحين تحولت مصر بكاملها إلى عروبة خالصة بالمعنى الثقافى الذى يلعب الدور الأساسى فى تحديد القومية .

ولكن الأمر بالنسبة لمصر والمصريين لا يمضى بهذه البساطة . فالمسألة مركبة إلى حد كبير، ولها تراكمات حضارية متعاقبة وتاريخية موروثة ، تجعل مسألة العروبة فى مصر ، برغم كل ما نعرفه عن تجانس سكانها ونقاء لغتها ، قضية مطروحة ، يتم استخدامها سياسيًا من حين إلى آخر .

فالمصريون يظنون أن لديهم المقومات الذاتية ، التى تصل بهم إلى مستوى الأمة . وليس بعيدًا عنا ، تلك السنوات القريبة فى مطلع هذا القرن ، حين تحدث المصريون عن « الأمة المصرية » ، فى خضم النضال ضد الاحتلال البريطانى ، حيث بلغت ذروة الحركة الوطنية حد الثورة الشعبية عام ١٩١٩ ، التى كانت شعاراتها تدور حول « الأمة المصرية » ، وزعيم الأمة « سعد زغلول » ، كما استيقظت فى تلك الفترة نعرات تاريخية ، ونزعات مصرية فكانت أغانى « سيد دزويش » تعبيرا عن روح « الأمة المصرية » ، وجسّد « محمود مختار » تلك الروح فى تماثيله الشهيرة ، وبذلك تبلورت ، منذ عشرينيات هذا القرن ، حركة وطنية تستند إلى مفهوم « الأمة المصرية » ، ولا تبالى بغير ذلك من الانتماءات ، حيث كانت العروبة قضية غير مطروحة بالمضمون القومى المعاصر ، والمفهوم السياسى الواضح ، وكان شعور المصريين تجاه الأشقاء العرب يرتكز على مفهوم دينى ثقافى ، فضلاً عن الارتباط الجغرافى . بل إن موقف

حزب الوفد ـ حزب الأغلبية على مسرح السياسة المصرية لأكثر من ثلاثين عاما ـ لم يكن بطبيعته ، خصوصا فى سنواته الأولى ـ متحمسا للاتجاهات العربية . فقد استند الحزب عبر تاريخه ، على مثلث فكرى يتلخص فى : الوحدة الوطنية المصرية ، والليبرالية السياسية والنزعة العلمانية التى حددت اختلافه عن أحزاب الحركة الوطنية التى سبقته وكانت ذات صبغة دينية .

ولاشك أن المثقفين المصريين ـ قبل ثورة ١٩٥٢ ـ مسئولون بالدرجة الأولى عن ضعف جانب العروبة فى أركان الهوية المصرية ، فلم يكن من المتوقع أن يعنى تيار التغريب فى الثقافة المصرية بفكرة القومية العربية . بل إن أديب مصر العظيم « توفيق الحكيم » قد خلط فى الطبعات الأولى من كتابه « عودة الروح » بين العرب والبدو ، ورأى فى مصر ، مثل غيره من معظم مثقفى عصره ، مستوى يعلو على غيره من الكيانات السياسية المحيطة ، وتضخمت لدى بعض المصريين مشاعر الإحساس بالاستعلاء ، وترددت بينهم مقولات تتحدث عن التميز المستمد من التاريخ الأكثر عراقة ، والبلد المركزى الأكبر حجما ، والدور السياسى الأكثر تأثيراً على المستويين الدولى والإقليمى .

ولقد عبر الجغرافى المصرى الراحل « جمال حمدان » عن ذلك بقوله :

« إن مصر ، بتجانسها ووحدتها ، تتحرك ككتلة واحدة عادة ، دون أن تعرف الانقسامات والشظايا التى تفكك كثيراً من الشقيقات العربية ؛ مما يمنحها ثقلا فعالا ووقعا يزيد عن ثقل عدة وحدات صغيرة لها نفس مجموع حجمها ، ولهذا أيضًا ، فإن الاستقرار السياسى ـ حتى فى ظل الإقطاع ـ سمة واضحة ، تتباين بسهولة مع أحوال المشرق العربى مثلا . وفى النتيجة ، فإن مصر أقوى قوة فى العرب مرتين : مرة بمطلق حجمها ، ومرة بتجانسها المطلق » (٤٠).

والواقع ، أن الدولة الحديثة فى مصر ، التى بدأ ميلادها بدخول حملة « نابليون » بآثارها الثقافية الواسعة فى ذلك الوقت ، ثم وصول « محمد على » إلى قمة السلطة ، هذه الدولة قد تبلورت لها ذاتية سياسية ، وشخصية ثقافية جعلت النزعة الاستقلالية عن الدولة العثمانية مرادفا للتميز المصرى ، وإبرازا لما يمكن التعبير عنه بكلمة « القومية المصرية » .

ولقد شعر العرب بالتطورات التى تجرى فى الوطن المصرى ، وتعاطف الكثيرون ، ولاسيما الشوام ، مع ظروف مصر ، بل وفد إليها صفوة منهم يحملون اهتماما خاصا بالأدب

---

(٤٠) جمال حمدان ـ « شخصية مصر ـ دراسة فى عبقرية المكان » الجزء الرابع ـ ص : ٦٤٦ .

والصحافة وبالمسرح وفنونه ، وأصبحوا روادًا فى هذه الفروع ، وتزاوجت اهتماماتهم مع مناخ الحرية الاجتماعية فى مصر ، والذى كانت تظلله الليبرالية السياسية فى معظم الوقت (٤١).

وهناك بعد آخر ، تجدر الإشارة إليه ، بل والتركيز عليه ؛ وأعنى به إبراز فلسفة النضال المصرى ضد الاحتلال البريطانى ، حيث وقف البعد الدينى وراء الانتفاضات المصرية ضد العدو الغربى الذى لا يدين بالإسلام ؛ فكانت حركة « أحمد عرابى » ، ثم جهود « مصطفى كامل » ، وغيرهما من رواد الحركة الوطنية المصرية ، تمضى تحت مظلة إسلامية وليست عربية بأى حال ولم يكتب لها التمصير الكامل إلا بالثورة الشعبية عام ١٩١٩ . فواقع الأمر ، أن الفلسفة السياسية لحزب الوفد ، هى التى انتقلت بالحركة الوطنية من المناخ الوطنى الإسلامى إلى المناخ الوطنى المصرى ؛ وذلك يفسر بالطبع الإقبال المتزايد من الأقباط على المشاركة فى الوجه الثانى من الحركة الوطنية ، والانضمام بحماس شديد لحزب الوفد .

ولا تبدو الصورة على هذا النحو بشكل كامل ، بل إننى أزعم أن هناك ومضات عروبية وجدت طريقها إلى ساحة العمل الوطنى المصرى فى تلك الفترة ، فكانت النظرة إلى الدول العربية تمتزج بالتعاطف الإسلامى معها . وجاءت قصائد أمير الشعراء « أحمد شوقى » ، فى عدة مناسبات عربية ، مرتبطة بأحداث هامة فى سوريا ، تعبيرًا عن تعاطفين تاريخى وإسلامى بالدرجة الأولى . وحتى أولئك الذين نسميهم برواد الحركة العربية فى مصر فى النصف الأول من هذا القرن ، من أمثال « عزيز المصرى » و « عبد الرحمن عزام » و « صالح حرب » ، هؤلاء جميعا اختلطت لديهم الفكرة العربية بالولاء للخلافة الإسلامية فى وقت واحد. وحين شارك بعضهم بالفعل فى عمليات المقاومة المسلحة ، ضد الوجود الغربى فى بعض الدول العربية ، مثلما حدث ضد الاحتلال الإيطالى لليبيا ، فإنهم كانوا يمارسون ذلك بدوافع لا تختلف كثيرًا عن مشاركة طلائع الفدائيين المصريين فى حرب فلسطين ١٩٤٨ .

وقد يتصور البعض أن وجود أقلية مسيحية ، ذات وزنين اقتصادى واجتماعى فى مصر كان له دوره فى تحجيم الحركة العربية بها فى وقت معين ، وهذا قول مردود عليه ، وتكفى الإشارة هنا إلى الجولة التى قام بها « مكرم عبيد باشا » سكرتير عام حزب الأغلبية المصرى عام ١٩٣١ ، وزار فيها سوريا ولبنان وفلسطين . فقد عكست زيارته بعدًا جديدًا فى الموقف القبطى تجاه مسألة العروبة ، وألقى عدة خطب فى دمشق وبيروت وشتورًا والقدس وعكا وحيفا ، وأثار مسألة عدم تعارض الفكر القومى العربى مع الشخصية المصرية . بل لقد

---

(٤١) انظر كلمتنا فى ندوة احتفال « الهلال » بعيده المئوى ـ القاهرة ـ ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٢ ـ والتى يتضمنها ملحق هذا الكتاب .

استخدم فى بعض خطبه تعبير « الجامعة العربية » ، قبل إنشاء تلك المنظمة الإقليمية بأكثر من عشر سنوات (٤٢).

وواقع الأمر ، أن بعض المسلمين المصريين مسئولون إلى حد كبير عن إبراز مخاوف الأقباط من الفكر القومى ، وتحفظهم تجاه القومية العربية ، حيث ارتبط فى ذهن بعض المصريين التاريخ الفرعونى بالعداء للإسلام وللثقافة العربية التى حملها معه . ويشير المفكر الإسلامى الكبير « عباس العقاد » لهذه النقطة فيقول :

« وأخطر من كل دعاية ، خلط العامة من المسلمين بين اسم الفراعنة واسم قدماء المصريين ، أو ظنهم أن كل فرعون هو فرعون « موسى » ، الموصوم بالكفر والطغيان فى سور القرآن ، فأصبح اسم القدماء المصريين مرادفا عندهم لاسم فرعون المنبوذ فى كتاب الله » (٤٣).

بل إن مفكرًا إسلاميا آخر ، هو د. محمد عمارة ، يرى أن الاستعمار السياسى والتغريب الثقافى مسئولان عن ابتعاد مصر عن العالمين الإسلامى والعربى فى فترات معينة ؛ « فالدولة القطرية المعاصرة فى وطن العروبة وعالم الإسلام . . . سائرة على الدرب الذى بدأه « محمد على باشا » بهذا اللون من التحديث للدولة ، مع سلبيات جديدة (تمثلت فى التغريب الذى تبناه ويتبناه الكثير من الدول القطرية ومؤسساتها) ، كأنها من آثار الحقبة الاستعمارية ، ومن تصاعد هيمنة الغرب على الشرق والشمال على الجنوب » (٤٤).

وواقع الأمر ، أن الجدل حول عروبة مصر ، لم يكن رفضا مباشرًا من جانب من لم يتحمسوا له ، ولكنه كان أمرًا أقرب إلى التجاهل منه إلى الرفض ؛ إذ « يميل عدد كبير من المصريين إلى الاحساس بانتماء لهم غير عربى ، يغذيه فيهم قدم ماضيهم وأمجادهم من الفراعنة » (٤٥).

ولم يقف الأمر عند تجاهل عدد من المصريين للتوجهات العربية فى مصر ، بل إننا نلاحظ أن تيار الثورة الشعبية ذاته ، لم يجعل من العروبة شعارًا مطروحًا من قريب أو من بعيد وتتضح هذه النقطة بجلاء ، فى تحليل الدكتور عبد العظيم أنيس ، إذ يقرر أنه « لم يكن غريبا أن تكون قيادات ثورة ١٩١٩ فى مصر متحفظة إزاء الفكر القومى العربى الذى نشأ فى

(٤٢) د. مصطفى الفقى - « الأقباط فى السياسة المصرية » - القاهرة - دار الشروق - الطبعة الثانية - ١٩٨٨ - ص : ٨٥ .

(٤٣) عباس العقاد - « سعد زغلول ، سيرة وتحية » دار الشروق - الفصل الأول .

(٤٤) د. محمد عمارة - مقال بصحيفة « الحياة » - ٤ يونيو (حزيران) ١٩٩٣ .

(٤٥) حسين أحمد أمين - « حصاد نصف قرن من القومية العربية » - مقال بجريدة « الأهالى » - ٢ يونيو (حزيران) ١٩٩٣ .

المشرق . ولم يكن غريبًا أن ينسب إلى « سعد زغلول » ما قيل إنه قاله عندما سئل عن رأيه فى الوحدة العربية ، خصوصا أن خطب « مصطفى كامل » و « عبد الله النديم » العنيفة فى نقد المشارقة المقيمين فى مصر ، كانت ولا تزال حية فى الأذهان . ومع أن الشعب المصرى ظل شديد التعاطف مع نضال الشعوب العربية فى المشرق ضد الاستعمار بعد الحرب الأولى ولكن كان هذا التعاطف شيئًا مختلفا عن الالتزام القومى بالمعنى المعروف فى المشرق ، وبقى التيار الليبرالى المصرى مرتبطًا بفكرة الوطنية المصرية ، التى أعادها أدباء مثل « توفيق الحكيم » إلى جذورها الفرعونية فى (عودة الروح) ، كما أعادها « طه حسين » ثقافيًا إلى جذور بحر متوسطية فى (مستقبل الثقافة فى مصر) » (٤٦).

والملحوظ أنه على الجانب الآخر ، فإن المفكرين والساسة الشوام كانوا يدركون بوضوح تركيز مصر على هويتها الإسلامية قبل هويتها العربية ، لأن المصريين لم يدخلوا فى مواجهات حادة مع الأتراك المسلمين ، على نحو يغذى لديهم شعورًا قوميًا عربيًا بل تركزت الحركة الوطنية المصرية ضد الغرب المسيحى . حتى إن محاولات الملكين فؤاد وفاروق لاستعادة الخلافة الإسلامية فى مصر ، والإيحاء بعقد مؤتمرات إسلامية إعلامية فى هذا الشأن ، قد أدت كلها إلى تأكيد نظرة أهل الشام تجاه تلك الروح المصرية ، إذ يقول أنطون سعادة :

« لقد كان من الظواهر الهامة فى مؤتمر مصر (المؤتمر الإسلامى الذى دعا إليه محمد على علوبة باشا) الهتاف لجلالة الملك فاروق « بخليفة الإسلام » فى الحفلة الافتتاحية ، وما تلا ذلك من الإذاعة والمظاهرات التأييدية « للملك الصالح » ، والخطب والمقالات والنشرات الرامية إلى إثارة النعرة الدينية ، وجعل النظرة الدينية ـ السياسية تسيطر على المؤتمر. وقد اجتهد أصحاب الدعوة فى إكساب المؤتمر المصرى صفة دينية عامة ، فوجهوا الدعوة إلى مسلمى رومية و إفريقيا وآسيا ، لأن القصد من إثارة مسألة الخلافة حسب وجهة النظر البريطانية هو أن تصبح الخلافة قوة سياسية ، يمكن أن تؤثر على مجرى الأحوال الدولية والإقليمية فتصبح مصر اليوم (البريطانية) فى العالم الإسلامى ما كانته تركيا قبل الحرب » (٤٧).

بل إن « سعادة » يتجاوز ذلك ، فيشير إلى التعايش السياسى المصرى مع الوجود اليهودى فى فلسطين ، عند بدايته ، بتأثير الجالية اليهودية النشطة فى مصر اقتصاديًا وسياسيا وبتأثير بعض الزعامات المصرية التى كانت متحفظة تجاه أى مواجهة مصرية مع اليهود فى فلسطين ، باعتبارها قضية مشرقية لا داعى لأن تتورط مصر فيها . ولم يكن شعور بعض

---

(٤٦) د. عبد العظيم أنيس ـ « مستقبل الفكر القومى » ـ مقال فى مجلة الهلال ـ القاهرة ـ إبريل (نيسان) ١٩٩٣ .

(٤٧) أنطون سعادة ـ « مختارات فى المسألة الفلسطينية » ـ ص : ١٠٢ .

المثقفين المصريين فى البداية بعيدًا عن ذلك ، حتى أن عميد الأدب العربى الدكتور « طه حسين » قد دعى للمشاركة فى احتفال افتتاح الجامعة العبرية فى القدس من منطلق علمى ثقافى بحت، وهو أيضًا الذى ترأس مجلة « الكاتب المصرى » فى القاهرة ، والتى وقف وراء تمويلها بعض اليهود ، وأخذ البعض عليها أنها كانت محاولة مبكرة لتكريس التعايش بين اليهود والعرب . ولنتأمل هنا ما قاله « أنطون سعادة » فى هذا الشأن : « ما هى الأسباب التى حملت مصر على تغيير سياستها ؟ فتهتم الآن هذا الاهتمام المباشر الفجائى بالمسألة الفلسطينية ، بعد أن كانت راضية عن الازدهار اليهودى فى فلسطين ، حتى أنها أرسلت من يمثلها فى تدشين الجامعة العبرية فى القدس ؟ » (٤٨).

وواقع الأمر ، أن المصريين يدركون غالبًا الارتباط الوثيق بين إسلامهم وعروبتهم . فإذا سئل المصرى عن هويته ، فقد يقول إنه مصرى مسلم عربى . ولا شك أن هذا الترتيب فى مسار الهوية ، يعكس ، بالدرجة الأولى ، إحساسا بأن العروبة بعد إسلامى ، على عكس ما يراه الشوام من أن الإسلام بعد عروبى ، لأنهم يركزون بالدرجة الأولى على عامل اللغة والثقافة وفى ذلك يقرر « ساطع الحصرى » : « أن العناصر الأساسية فى تكوين القومية هى : وحدة اللغة ، ووحدة التاريخ ، وما ينتج عن ذلك من مشاركة فى المشاعر والمنازع ، وفى الآلام والآمال . ولاشك فى أن جميع الناطقين بالضاد ، جميع أبناء البلاد العربية ، تتوفر فيهم هذه العناصر والمقومات الأساسية ، ولذلك فإنهم يكونون أمة واحدة » (٤٩).

ومهما كان الأمر ، فإن المضمون القومى للبعد العربى لمصر ، لم يتبلور بشكله الحالى إلا على يد « جمال عبد الناصر » ، الذى استبدل بوحدة « وادى النيل » اتجاها عروبيا شاملا جعله صاحب النداءات القوية على طريق الفكر القومى ، منذ منتصف خمسينيات هذا القرن . ولعل ذلك قد فتح شهية الشوام تجاه فكر عبد الناصر، وجعل منهم سنده الشعبى فى حركته القومية رغم مراحل الاقتراب منه أو الابتعاد عنه ، حتى أن أحد منظرى البعث قد عبر عن ذلك التحول بحديثه عن « أولئك الذين يستغربون كيف انقلبت مصر من تلك الدولة التى كانت تتمسح بالعروبة تمسحا خفيفًا، وهى لا تدرك لها معنى ولا تقيم لها وزنا إلى تلك الدولة التى أصبحت تقود العروبة ، وتقود حركة الوحدة كما لم تفعل دولة عربية من قبل » (٥٠).

---

(٤٨) المرجع السابق ـ ص : ١٠٠ .

(٤٩) ساطع الحصرى « أبو خلدون » ـ مقال فى مجلة العربى فبراير (شباط) ١٩٥٩ .

(٥٠) د. منيف الرزاز ـ « لماذا الاشتراكية الآن ؟ » ـ ص : ٢٣ .

وقد تزايد حماس عرب المشرق بشكل كاسح لدور مصر القومى ، بقيادة جمال عبد الناصر. فيقول « ساطع الحصرى » فى رسالة منه إلى الأستاذ إحسان عبد القدوس ، رئيس تحرير روز اليوسف فى ذلك الوقت ، تعليقا على مقال له : « ان مصر تقع فى موقع القلب من جسم العالم العربى ، فيجب عليها ـ والحالة هذه ـ أن تسير على سياسة عربية ، فتسعى إلى توحيد العرب بصورة فعلية » (٥١).

وخلاصة ما أريد الوصول إليه ، هو : أن عروبة مصر انتماء أصيل ، لا يشكك فيه مصرى . وإنما مصدر القلق الفكرى أحيانا ، ينجم عن طبيعة التعددية فى الهوية المصرية والتداخل بين الانتماءات . ولقد استخدمت قضية عروبة مصر وفقا لطبيعة نظام الحكم بها : فقد رأت فيها أحزاب ما قبل الثورة بعدًا إسلاميا ، يربط مصر بجيرانها على أسس موضوعية حيث كان الخطر الإسرائيلى فى بدايته . وحين وصل ثوار يوليو إلى الحكم ، كانت جماعة الإخوان المسلمين هى أكثر الحركات السياسة فى مصر حماسا للقضية الفلسطينية ، من منطلق إسلامى قبل أن يكون عربيًا . ولكن عبد الناصر ، هو الذى أعطى العروبة مضمونها القومى على أساس سياسى ، واعتبر أن عروبة مصر «قدر ومصير وحياة» . وحين رحل عبد الناصر بعد سنوات قليلة من هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، اتصفت فترة حكم الرئيس السادات بالاقتراب أحيانا والابتعاد أحيانًا أخرى من الدول العربية ، وفقا لتحولات النظرة المصرية تجاه الصراع العربى ـ الإسرائيلى . وبقدر ما كانت « كامب ديفيد » رؤية مصرية ، عبر عنها السادات فى وقته كحل واقعى للصراع الطويل ، إلا أنها كانت بمثابة صدمة قومية للعرب ، أعادت من جديد فتح ملف عروبة مصر ، حيث دار حوار حاد بين المثقفين المصريين والعرب ، وأصبح السؤال عن هوية مصر مطروحًا من جديد .

---

(٥١) ساطع الحصرى « أبو خلدون » ـ الأعمال القومية ـ الجزء الثانى ص : ١٣٨١ .

الفصل الخامس

عبد الناصر والبعث ... التزاوج المفقود

« قد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة ، أن يحول ميلها
الطبيعى من طلب الترقى إلى طلب التسفل
بحيث لو دفعت إلى الرفعة لأبت ، وتألمت كما
يتألم الأجهر من النور ، وإذا ألزمت بالحرية
تشقى ، وربما تفنى » .

عبد الرحمن الكواكبى

عبد الناصر والبعث ..
التزاوج المفقود

وتبدو أهمية العبارة ، التى ذكرها عبد الرحمن الكواكبى « فى طبائع الاستبداد » ، فى أنها تمثل نموذجًا لرؤية مفكر عربى مسلم ، لطبيعة الأمة ، وكيف أنها ـ بغياب الديمقراطية ومناخ التعددية السياسية ـ تقع فريسة الرؤية الواحدة ، التى قد تصل بها إلى درجة من الاستبداد تحرمها الرقى والرفعة . وليس ذلك جديدًا على العرب ، عبر تاريخهم الطويل . وهو ، على كل حال ، تاريخ الفرص الضائعة ، والمناسبات التى لم يحسنوا استغلالها والإمكانات التى أهدروها طواعية أو بغير وعى .

ولعل العلاقة التاريخية الشهيرة ، بين قيادة عبد الناصر الثورة وحركة البعث العربى القومية ، هى نموذج واضح لما نقول ، فلو أننا تصورنا أن الأحداث فى نهاية الخمسينيات قد أخذت مسارًا مختلفًا ، لكانت دولة الوحدة بناء حقيقيًا ، وليس تكوينا هشا يستند إلى فوران عاطفى تقف وراءه مغامرة حزبية فى جانب ، وطموحات زعامة فردية فى جانب آخر .

ولو أن النيات قد خلصت ، والنظرة الضيقة اختفت ، والمصالح الحزبية انكمشت والنعرات القطرية تضاءلت . . لو أن ذلك كله حدث ، لتغير التاريخ العربى المعاصر ، وما حاق بالعرب ما تعرضوا له من ضعف وهوان ، وما أصابهم من هزائم ونكسات . فلقد كان التزاوج القومى ممكنا ، بين حزب البعث العربى الاشتراكى وقيادة جمال عبد الناصر الثورية القومية . ولكننا نعلم ، من استقراء تاريخ تلك الفترة ، أن الصدام قد حدث بين الحزبيين المتمرسين بالسياسة ، وبين القائد الذى لا يعرف المناورة ولا يجيد أساليبها . .

ولقد عكست المباحثات التمهيدية ، لإحياء دولة الوحدة ، بعد انفصال شطرى الجمهورية العربية المتحدة بسنوات قليلة ، وهى المباحثات التى شاركت فيها القيادة المصرية مع قيادات البعث الحاكمة فى كل من سوريا والعراق فى ذلك الوقت ، لقد عكست تلك المباحثات روح الصراع وأسلوب المراوغة . فلو أننا تأملنا محاضر جلساتها ، لوجدنا نمطا

عربيا من « الدياجوجية » السياسية ، التى اشتهر بها الثوار العرب ، والتى تعكس طبيعة تفكيرنا الذى يستغرق فى التفاصيل ، وأسلوب حياتنا الذى يهتم بالشكل ، وينسى المضمون ، ويتمسك أحيانا بالوسيلة ، ويصرف النظر عن الغاية !!

فالذى حدث فى تلك المباحثات ، هو أنها تحولت إلى مباراة حزبية قطرية ، يرفع فيها الجميع شعارات قومية وثورية وعاطفية ، ولكن ما يضمره كل طرف وما يهدف إليه من الدخول فى تلك المباحثات كان أمرًا مختلفًا تمامًا . ولو أن البعثيين أخلصوا النية ، ولو أن عبد الناصر تنازل عن عقدة حجم مصر ودورها ـ بحيث تزاوجت الحركتان ـ لأمكن له أن يكون زعيم العرب ، الذى يحكم بحزب له تاريخ مؤثر فى المشرق العربى ، وكوادر حاكمة فى أهم بلدين عربيين بعد مصر . ولكن ذلك لم يحدث ، ليضيف العرب فرصة ضائعة جديدة إلى عشرات الفرص التى هربت من أيديهم(٥٢).

ولا يعنى ذلك ، أننا ننكر الدور المؤثر ، الذى لعبه عبد الناصر من جانب والبعث العربى وغيره من الأحزاب القومية من الجانب الآخر ، إذ إن مجرد إحياء الشعور القومى ، هو نجاح ضخم وإنجاز حقيقى . يقول ساطع الحصرى : « إنى أعتقد أن أول ما يجب عمله لتحقيق الوحدة العربية ـ فى الأحوال الحاضرة ـ هو إيقاظ الشعور بالقومية العربية ، وبث الإيمان بوحدة هذه الأمة » (٥٣).

وليس حديثنا اليوم غريبا عن فكر الناصريين والبعثيين على حد سواء ، سواء كان ذلك فى مصر أو فى المشرق العربى ، ولنتأمل ما يقول به أحد الناصريين السوريين أخيرًا :

« استطاع حزبنا بعد مرحلة طويلة ، استمرت عقدا من الزمن ، أن يبلور لنفسه خطا سياسيًا معروفًا ، ومنهجا فكريا واضحا . وحدد المؤتمر العام العاشر للحزب (تموز « يوليو » ١٩٨٨) بعض منطلقاته الفكرية :

أولا : حزب الاتحاد الاشتراكى العربى فى سوريا ، هو الابن الشرعى للتجربة الناصرية

---

(٥٢) يثير الحديث ، عن فرصة التزاوج الضائعة بين عبد الناصر والبعث على المستوى العربى القومى ، نموذجًا آخر لفرصة ضائعة ـ فى ظنى ـ بين السادات وحزب الوفد على المستوى المصرى الوطنى ، كان يمكن أن تتحقق فى نهاية السبعينيات بحيث يحكم السادات ، أحد قادة ثورة يوليو ، مستندا إلى أكبر قاعدة شعبية عرفتها مصر الحديثة ، هى المتمثلة فى حزب الوفد قبل ١٩٥٢ . وليس ذلك غريبا فى عالم السياسة ؛ فلم تكن الاختلافات الفكرية بين السادات والوفد واسعة من الناحية العملية ، كما أن شخصية السادات كان يمكن أن تكون مستعدة لمثل ذلك التزاوج المفقود .

(٥٣) ساطع الحصرى ـ « الأعمال القومية » ـ القسم الثانى ـ ص : ١٢١٧ .

وبالتالى ، فإن تراث جمال عبد الناصر الفكرى والسياسى يبقى دائماً المصدر الذى يستلهم منه الحزب مبادئه وأفكاره ومواقفه .

ثانيا : إن حقبة عبد الناصر ، لا يمكن أن تكون قيدا على حقبة .

ثالثا : إن تراث عبد الناصر الفكرى والسياسى ، يظل قابلا للاجتهاد الحر ، الذى لا يتعصب ولا ينحرف ، أى أنه تراث قابل للاجتهاد فى إطار التجربة ذاتها ، وليس خارج هذا الإطار .

رابعا : إن تجربة عبد الناصر ليست قابلة للنسخ والنقل . ذلك ، لأن الظروف المتغيرة تقتضى ابتكار أساليب جديدة فى العمل ، تستطيع أن تتعامل مع هذه الظروف .

كان الشعار الأول ، الذى رفعه حزبنا عام ١٩٨٣ ، هو أن جمال عبد الناصر وحافظ الأسد جناحان متكاملان فى مدرسة القومية العربية . وعبر سنوات عدة ، تبلورت هوية الحزب الفكرية والسياسية ، وكما يقول أحد الشعارات المركزية للحزب (تجربة حافظ الأسد الفكرية والسياسية هى استكمال و إنضاج لتجربة جمال عبد الناصر » (٥٤).

وواقع الأمر ، أن حزب البعث والحركة الناصرية ، قد واجها نوعا من الشيخوخة المبكرة والترهل السياسى الذى بلغ قمته بمأساة الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ ، حيث اعتمد التنظيمان معا على أسلوب الاستمرار فى الحكم واستمراء السلطة ، وهو ما يعبر عنه الدارسون لهذه الحقبة بأزمة البعث وجمود الناصرية . « فلقد بلغ من عدم التقدير ، مثلا ، أن قيادة البعث لم تفطن إلى الدلالة الحقيقية العميقة لقبولها (حل الحزب) كشرط لتحقيق الوحدة المصرية - السورية ؛ فكيف يتأتى أن يكون إلغاء أداة من أجل الوحدة شرطا مقبولا منها لتحقيق تلك الوحدة ؟ » (٥٥).

بل إن « أزمة البعث » تجلت فيما جرى فى المؤتمر القومى التاسع للحزب (شباط « فبراير » ١٩٦٨) ، بعد أكثر من عشرين عاما على نشأته ، حيث خرج الحزب بنقاط عشر هى سر أزمته ، وتلخصت فيما يلى :

١ - الانقسام حول مفهوم الحزب ، والذى ظهر منذ المؤتمر القومى الأول .

---

(٥٤) صفوان القدسى - أمين عام حزب الاتحاد الاشتراكى العربى - صحيفة « الحياة » - ٦ يونيو (حزيران) ١٩٩٣ .

(٥٥) حسين محمد معلوم « قراءات فى نقد اليسار العربى » التجربة الحزبية العربية - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩١ ص ١٤٠ .

٢ ـ تجربة الدمج مع الحزب العربى الاشتراكى عام ١٩٥٢ ، والتى كانت عملية سياسية أكثر منها وحدة فكرية .

٣ ـ أزمة القيادة ، وتيار استعجال الوصول إلى السلطة .

٤ ـ ظهور الاتجاهات القطرية بين كوادر الحزب .

٥ ـ بروز التيار التقليدى ، وشيوع النظرة الاستسلامية للواقع .

٦ ـ تأخر تشكيل القيادة القومية .

٧ ـ التكوين الطبقى للحزب ، وسيطرة بعض العناصر البرجوازية عليه .

٨ ـ ضعف النظرية التنظيمية ، والتباعد بين الفكر والتطبيق .

٩ ـ غياب الإستراتيجية ، وبروز الأدوار الشخصية .

١٠ ـ المبالغة فى الاعتماد على القطر السورى ، والتركيز على استثمار الشخصيات التاريخية لمؤسسى الحزب (٥٦).

ويضيف ساطع الحصرى إلى ما تقدم ، أن حزب البعث العربى لم يكن الوحيد فى الدعوة إلى الوحدة ، كما يظن البعض ، وكما صار يدعى الكثيرون من البعثيين ، ولكن الحزب تميز فى نظره بأمرين أساسيين هما :

(أ) أن المواد المتعلقة بالعروبة فى دستور الحزب ، تبلغ أضعاف ما هو مسطور فى دساتير الأحزاب الأخرى .

(ب) أن حزب البعث العربى ، كان يتفرد فى التصريح بأنه (حزب عربى شامل) ، تؤسس له فروع فى سائر الأقطار العربية ، وهو لا يعالج السياسة القطرية إلا من وجهة نظر المصلحة العربية (٥٧).

ونضيف إلى ما تقدم مسألة جوهرية ، تبدو فى نظرنا أبرز نقاط الضعف فى مسيرة البعث منذ إنشائه . فهو الحزب الوحدوى الذى يتجاوز المفاهيم القطرية ـ رغم انتماء قياداته الأولى لسوريا ـ ولكنه فشل فى الوصول إلى عقل مصر وقلبها . فلقد جرت محاولات كثيرة ، فى الخمسينيات والستينيات ، لاختراق المثقفين المصريين بفكر البعث وتنظيماته ، ولكن الأمر

---

(٥٦) المرجع السابق ـ ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٥٧) ساطع الحصرى ـ « الأعمال القومية » ـ القسم الثالث ـ ص : ١٩٦ .

استعصى عليه ، لأمرين : **أولهما** : أن أجهزة عبد الناصر كانت له ولغيره بالمرصاد ، ترصد كل محاولات التأثير الفكرى ، أو التنظيم الحزبى على المصريين ، رغم أن القاهرة كانت ترفع فى ذلك الوقت شعار القومية العربية ، وتنادى بالوحدة ، وتردد أفكارًا لا تختلف كثيرًا عن فكر البعث إلا فى ترتيب القضايا وأولويات طرح الأهداف القومية . **وثانيهما** : أن قيادات «البعث » ، لم تدرس بعناية تركيبة الساسة والمثقفين المصريين ؛ فتحدثت إليهم بنفس أسلوب حديثها للشباب العربى فى دول المشرق . لكن مصر لها مفاتيح خاصة ، تتمثل فى ضرورة الوعى بتاريخها الوطنى الحديث ، وأهمية فهم الشخصية المصرية ، فضلاً عن أن شعارات الحزب وفلسفته كانت كلها غريبة عن عقل ووجدان معظم المثقفين المصريين .

فإذا كان حزب البعث ـ وهو المختلف بمائة وثمانين درجة عن الحزب السورى القومى بإطاره القطرى . إذ يرفع البعث شعاره المعروف : « أمة عربية واحدة . . ذات رسالة خالدة » إذا كان قد عجز عن الوصول إلى مصر ، الدولة القاعدة فى الوطن العربى ـ مهما كانت الأسباب ـ فإن ذلك هو أبرز اخفاقات الحزب منذ نشأته . فلا هو استطاع أن يخترق العقل المصرى ، ولا هو أيضا استطاع احتواء قيادة عبد الناصر . بل على العكس من ذلك ، دخل معها فى منافسات متصلة ، وصراعات مكتومة ، منذ إصرار البعث على الوحدة المصرية ـ السورية ، ثم المشاركة فى خطيئة الانفصال ، والمراوغة بعد ذلك فى تحقيق أمل الجماهير العربية فى الوحدة ، طوال الستينيات ، تحت مزاعم قطرية ، وفى ظل مشاعر حزبية ، ونظرة ضيقة للمستقبل العربى ، لا أعفى منها لا حزب البعث ولا عبد الناصر فى وقت واحد . فالأخير آثر أن يتعامل مع قضايا الفكر القومى ، وتنظيمات العمل العربى ، من خلال أجهزة الأمن القوية التى اقترنت بنظامه ، فكانت خطيئته هو الآخر أنه وضع حاجزًا قويًا بينه وبين الجماهير العربية ، التى آمنت به ، ووضعته فى مكانٍ لم يبلغه زعيم عربى سواه .

الفصـــل الســادس

فلسطــين ...
ســلام عــربى أم إســلامى ؟

« لا يؤمل أن يوجد للقضية الفلسطينية حل
دائم، ما لم يزل الحيف تمامًا . أما العنف ، سواء
كان ماديا أو معنويا ، فلا يمكن أن يأتى بحل » .

جورج أنطونيوس
« يقظة العرب »

فلســطين ...
ســلام عــربى أم إســلامى ؟

ليس من شك فى أن القضية الفلسطينية هى قضية العرب الأولى ، التى سيطرت على فكر العرب وسياستهم وأسلوب تعاملهم مع العالم الخارجى ، على امتداد العقود الخمسة الأخيرة . وهى القضية التى خاض فى سبيلها العرب الحروب ، وجلسوا من أجلها أيضا على موائد المفاوضات ، فى مناسبات مختلفة . والذى يعنينا ، هو أن نتناول هذه القضية من منظور مختلف ، يبدأ من هذا التساؤل : هل القضية الفلسطينية قضية إسلامية ؟ أم أنها ـ وكما ذكرنا ـ قضية العرب الأولى قبل غيرهم ؟

وواقع الأمر ، أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، له جوانبه المتعددة ، وزواياه المختلفة والتى يمثل البعد الدينى طرفا فيها ، لا من منطلق عربى إسلامى فحسب ولكن من منطلق يهودى إسرائيلى أيضًا .

فدعاوى إسرائيل تعتمد على دوافع دينية ـ بغض النظر عن تقييمنا لها ـ تجعل من فلسطين « أرض المعاد » بالنسبة لهم . كما أننا نتذكر أن التيار الدينى ، فى العالم العربى ، قد بادر قبل غيره بدخول ساحة المواجهة العسكرية ضد إسرائيل ، منذ انطلقت كتائب الإخوان المسلمين من مصر للمشاركة فى حرب ١٩٤٨ ، كما أننا ندرك أيضا أن القضية الفلسطينية ـ ومسألة القدس بالذات ـ ظلت شعارًا إسلاميا منذ احتلال إسرائيل الكامل للمدينة المقدسة .

وأضافت الثورة الإسلامية الإيرانية عاملاً جديدًا فى إشعال المشاعر الإسلامية ، تجاه البعد الإسلامى للصراع العربى ـ الإسرائيلى ، ومهما كانت الدوافع السياسية والأسباب التى دعت إيران الثورة إلى أن تأخذ مسارًا مختلفا عن تاريخ المواقف المعروفة لإيران الدولة تحت حكم الشاه ، إلا أن النتيجة فى النهاية ، هى دخول العامل الدينى الإسلامى بشكل أكثر كثافة من ذى قبل ، وأشد تأثيرًا . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تحولت أرض لبنان ، بظروفها المعروفة وتداعيات الحرب الأهلية على أرضها ، إلى مسرح تتلخص فيه كافة صراعات الشرق الأوسط وتياراته .

والتقى المد الإسلامى الثورى الإيرانى ، باستعداد تاريخى لدى شيعة لبنان ، للثأر من شعور طويل بالظلم والهوان ، جعل تسمية « المحرومين » على المقيمين منهم فى الجنوب اللبنانى اسما على مسمى . وهكذا ، أصبحت هناك قوى شعبية عربية ، مدعومة إسلاميا ومدفوعة قوميا ، ضد سياسات إسرائيل فى المنطقة .

وظهرت تنظيمات متعددة ، تحت مسميات حزبية مختلفة . ولم يكن للتقسيم التقليدى للمسلمين العرب بين شيعة وسنة تأثيره فى ذلك ؛ فأمام إسرائيل ، تتحد المواقف فى الغالب . إلى أن ظهرت فوق الأرض المحتلة وداخل إسرائيل ذاتها ، « حركة حماس » ؛ وهى حركة فلسطينية ، تسعى للكفاح المسلح ضد إسرائيل ، وتقف وراء الانتفاضة فى الأرض المحتلة تحت مظلة إسلامية بالدرجة الأولى . ووجدنا أنفسنا لأول مرة أمام احتمال « قيادة بديلة » تستند إلى الإسلام فى الحصول على الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى ؛ بينما منظمة التحرير الفلسطينية ـ صاحبة حق التمثيل الشرعى والوحيد للفلسطينيين ـ تواجه موقفا صعبا ومأزقا شديدا ، منذ أزمة الخليج ، برغم أنها تعبير تاريخى عن التيار الوطنى الفلسطينى ، الذى يحظى بأكبر حجم من التأييد ، وأكبر قدر من الإجماع .

وواقع الأمر ، أن توصيف الوضع القائم كان يحتاج إلى أكثر العبارات تعاسة . ولعله من المناسب أن نستعير فقرة من كتاب لأشهر منظرى الفكر القومى العربى المعاصر ، إذ يقول «ساطع الحصرى » :

« لا ريب أن حالتنا الحاضرة سيئة للغاية ، والنكبات التى منينا بها أخيرًا كانت فى منتهى الفظاعة ، كما أن الأخطار التى تهدد مستقبلنا عظيمة جدا . . . إننا لم نستجمع قوانا المادية والمعنوية ونحشدها لتحقيق هدفنا الأسمى ، بل إننا عملنا بتراخ وتردد ، بدون عزم قوى وتنظيم متين وإيمان عميق ، فأضعنا بذلك فرصًا كبيرة وانتهينا إلى فشل ذريع » (٥٨) .

ويمكننا الآن ، أن نتقدم للإجابة عن التساؤل المطروح : « فلسطين . . سلام عربى أم إسلامى ؟ » ونوجز محاولة الرد عليه فى النقاط التالية :

أولا : إذا كنا لا ننكر أن للصراع العربى ـ الإسرائيلى أبعاده الدينية من الطرفين ، اليهود والعرب فى وقت واحد ، إلا أننا نعتقد أن القضية الفلسطينية هى قضية عربية بالدرجة الأولى . . نعم . . . قد يهتم بها ويتحمس لها مسلمو ماليزيا أو باكستان ، ولكن درجة اهتمامهم ومستوى عنايتهم لا يرقيان بأى حال من الأحوال إلى شعور العربى ، مهما كانت ديانته الروحية أو عقيدته السياسية تجاه المسألة الفلسطينية . ويجب أن نتذكر هنا أن

(٥٨) ساطع الحصرى (أبو خلدون) « آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع » ـ القاهرة ١٩٥١ .

فلسطين، قبل قيام دولة إسرائيل ، كانت تمثل بوتقة لانصهار الديانات المختلفة ، وكانت نسبة المسيحيين فيها تزيد عن نسبتهم فى مصر ، وأيضا عن نسبتهم فى باقى أقطار الشام باستثناء لبنان .

وهكذا فإن قصر القضية الفلسطينية على بعدها الإسلامى ، هو حرمان تلقائى لعنصر مؤثر داخل الشعب الفلسطينى ذاته . ويكفى أن نتذكر أن من بين المسيحيين الفلسطينيين قيادات كانت تمثل التشدد تجاه إسرائيل ، وفى مقدمتها أسماء مثل « جورج حبش » و « نايف حواتمه» ، كما أن « كمال ناصر » الفلسطينى المسيحى يتصدر كتائب شهداء بلده المحتل بعد نضال شريف من أجل حقوقه المشروعة .

ثانيا : إن العلاقات بين أتباع الديانات المختلفة ، على أرض الشام بأقطارها المتعددة ـ وبرغم صراعات الطوائف التى يتواتر حدوثها فى بلد مثل لبنان ـ هى علاقات تحظى بقدر كبير من الاندماج السكانى والتسامح الدينى . ولم يعرف الشام فى تاريخه الطويل ، إلا درجة عالية من الانصهار القومى والاندماج الاجتماعى . وأشير هنا إلى ما يقرره كاتب أجنبى عاصر أحداث لبنان عام ١٩٥٨ ، إذ يقول :

« لقد وقف أهم زعماء الشيعة (مثل : صبرى حمادة ، وأحمد الأسعد) إلى جانب السنة العرب ، فى انتفاضة عام ١٩٥٨ بلبنان ، والمواجهة ضد سياسة (كميل شمعون) الموالى للغرب . والملاحظ أن زعيمين شيعيين فقط ، هما (عادل عسيران) و (كاظم الخليل) بقيا وحدهما مخلصين لشمعون ، أما الزعماء الشيعيون الآخرون ، فقد شكلوا جزءًا من معسكر الوحدة العربية المؤيد للناصرية » (٥٩).

ثالثا : إن دور الأردن يمثل عاملا هاما ، لأنه يملك فعاليات مؤثرة عل الشعب الفلسطينى فى الأرض المحتلة ، ولذلك ، فإن الأوضاع السياسية فى المملكة تعكس نفسها بالضرورة ، على ما يجرى فى الأرض المحتلة ؛ ومن ثم فإن « حركة حماس » تستمد جزءًا من صلابتها ، نتيجة تصاعد وجود التيار الإسلامى بين رموز النظام السياسى الأردنى .

وعلى الرغم من الدور الذى مارسه الملك الهاشمى ، على امتداد الأربعين عاما الماضية فى ظل ظروف غاية فى الصعوبة والتعقيد ، ومواجهات عديدة مع قوى داخلية وخارجية ، إلا أنه استطاع أن يحقق لمملكته درجة كبيرة من التوازن السياسى ، حتى كان غزو العراق للكويت ، واضطر الملك لاتخاذ موقف أدى إلى اختلال التوازن فى علاقته بالقوى التقليدية بالمنطقة . ولقد استطاع ـ والحق يقال ـ أن يوظف عددًا من السياسيين الأردنيين ليكون كل

---

(٥٩) لورنت وآنى شابرى ـ مرجع سابق ـ ص : ١٨٢ .

واحد منهم واجهة تعبر عن مرحلة معينة . فاختياره « زيد الرفاعى » رئيسًا للوزراء يكون إشارة للتقارب مع سوريا ؛ بينما كان يعطى تعيين « بهجت التلهونى » أو « عبد المنعم الرفاعى » إشارة من نوع آخر إلى القاهرة .

وهكذا ، تمكن الملك من استخدام كل ما هو متاح ، من أجل سياسة خارجية معتدلة ولكن تزايد الضغوط الفلسطينية ، وشعوره بقدر نسبى من العزلة ، بعد فك الارتباط بين الضفتين الشرقية والغربية من جانب، وموقفه من غزو العراق للكويت من جانب آخر، هذان الأمران أدّيا إلى أن يكون الأردن فى مفاوضات السلام الجارية أضعف تأثيرًا ، وأقل فاعلية .

رابعًا : إن المقارنة التى تدور دائما بين المصريين وعرب المشرق ، والتى ترى أن النموذج المصرى هو تجسيد لشخصية « الفلاح » المرتبط بالأرض تاريخيا ، يختلف عن النموذج الشامى الذى هو أقرب لرجل الأعمال ، « التاجر » القادر على المساومة ، والذى يجيد فنون التعامل إن هذه المقارنة تعكس نفسها أيضا على الساحة الفلسطينية . فمصر ، هى البلد العربى الوحيد الذى لم يتدخل فى القرار الوطنى الفلسطينى ، من خلال تنظيمات عسكرية موالية له أو جماعات سياسية تدين له بالولاء ، وهذه نقطة تحسب لمصر ، ولا تقلل فى الوقت ذاته من ثقلها فى كل ما يتصل بقرارات التسوية .

وخلاصة القول ، تؤكد أن انقسام الحركة الفلسطينية بين تيارين : أحدهما يمثل الاتجاه القومى ، والآخر يعبر عن التيار الدينى ، إنما هو انقسام يؤثر سلبا على مستقبل المسيرة الفلسطينية . ففى مراحل التحرر الوطنى ، والنضال من أجل أهداف الشعوب ، تكون الوحدة الوطنية ـ برغم كل الاختلافات ومظاهر التعددية ـ ضرورة لازمة ، حتى لا يستفيد الآخرون من التناقضات القائمة ، ولا يستخدمها أعداء أصحاب الحق فى تمزيق صفوفهم وتأجيل وصولهم إلى غايات نضالهم العادل . وذلك ، على ما يبدو ، هو ما يحدث الآن ، إذ يكفى أن نتأمل ما رددته إسرائيل ، بين حين وآخر ، من أنه لا يوجد كفاح مسلح للشعب الفلسطينى ، وإنما الانتفاضة التى تقودها « حماس » هى جزء من تيار التطرف الدينى الذى يعادى السلطة فى عدد من دول الشرق الأوسط ، ومنها مصر . وهكذا تبدو واضحة أبعاد المحاولة الخبيثة لإجهاض الثورة الفلسطينية ونضالها العادل [٦٠].

. . ونرصد جميعًا خروج الصراع العربى ـ الإسرائيلى من مرحلة المواجهة إلى مرحلة التعايش

---

(٦٠) انظر كتابنا « الإسلام فى عالم متغير » ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٣ ، وكذلك الفصل الأخير من كتابنا « لقاء الأفكار » الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٣ .

بعد الانفراج الذى تشهده المنطقة منذ توقيع اتفاق « غزة ـ اريحا أولاً » بين الفلسطينيين وإسرائيل وهو الذى جاء نتيجة تحولات دولية ومتغيرات إقليمية أفرزت فى النهاية احتمالات تسوية شاملة تتجه نحو نظام شرق أوسطى جديد .

ويبقى المهم فى نهاية المطاف ، أن تعود الحقوق لأصحابها ، وليس جوهر القضية هو سلام عربى . . أم سلام إسلامى ، ولكن جوهرها هو سلام فلسطينى يفى بالمطالب العادلة والمشروعة لذلك الشعب العربى المسلم .

الفصـــل الســـابع

جامعــة الدول العــربية ...
بيــن الثبــات والتغييــر

« إن دور مصر القيادى والريادى ، فى العالم العربى ، لم ينقطع أبدا ، حتى فى الفترات التى آلت فيها الزعامة الشكلية إلى غيرها ، بل إننا نوشك أن نقول إن الزعامة العربية خارج مصر لم تكن فى جوهرها إلا مرحلة تجريبية أو تجربة مرحلية » .

د . جمال حمدان

جامعة الدول العربية
بين الثبات والتغيير

جامعة الدول العربية هى المنظمة الإقليمية ، التى قامت فى منتصف الأربعينيات لتجسد شكلا تنظيميًا يحتوى الدول العربية المستقلة فى ذلك الوقت والتى وقعت على «بروتوكول الإسكندرية » ؛ فكان ظهورها سابقا على قيام « الأمم المتحدة » ، لذلك كان طبيعيا أن يتأثر ميثاق الجامعة بنظيره فى « عصبة الأمم » . ولعل قاعدة الإجماع التى اشتهرت بها الجامعة العربية ، ليست إلا صدى لذلك التأثير الذى نشير إليه .

وعلى الرغم من كل ما قيل وما كتب حول دور بريطانيا فى إنشاء الجامعة ، والظروف التى أحاطت بذلك فى وقت تهاوت فيه الخلافة الإسلامية التى كانت مصر تتطلع إلى وراثتها ، إلا أن قيام الجامعة جاء بديلاً يرضى طموح مصر فى تلك الفترة . . ولسوف أحاول أن أكون واضحًا ومباشرًا فى تحديد دور الجامعة وما يتردد حولها ، خصوصا فى السنوات الأخيرة ، ولن تكون مصريتى مصدر حساسية فى أن أقول بعض ما أريد ، بل على العكس ، قد تكون سببا لكى أكتب كل ما أريد . وسوف أوجز ملاحظاتى فى النقاط التالية :

أولا : إن هناك إحساسا عاما بضخامة الدور المصرى فى الجامعة وطغيانه على ما عداه . وإذا كان ميثاق الجامعة قد حدد القاهرة مقرًا لها ، فالعرب لا يجادلون كثيرًا فى ذلك ، إلا أن الميثاق نفسه لم يفرض جنسية الأمين العام ، وتركها للاختيار المفتوح من بين من تجتمع حولهم كلمة الحكومات العربية ، وهو اتجاه يتمشى مع الروح السائدة لدى المنظمات الدولية والإقليمية فى السنوات الأخيرة . .

وواقع الأمر ، أن هذا الشعور ليس وليد اللحظة ، بل إنه يمتد إلى سنوات طويلة منذ ميلاد الجامعة ذاتها ، يقول فى ذلك « أنطون سعادة » منذ أكثر من خمسة وأربعين عاما :

« إن جعل مركز مؤسسة الجامعة العربية الدائم مصر ، يجعل جو السياسة المصرية يؤثر

ويسيطر على أعمال المؤسسة وتوجيهها ، خصوصا وأن الصحافة المصرية ومجلس السياسة المصرية هما اللذان يقودان كل بحث ويعالجان كل موضوع ، وفيها تسمع الوفود واللجان الآراء وهى فى غالبيتها ، أن لم تكن يكليتها مصرية » (٦١).

وقد يقول قائل : وماذا نتوقع من « أنطون سعادة » غير هذا الذى قال ؟ ألم يكن الرجل داعية « سوريا الكبرى » ، ومفكر « الهلال الخصيب » ؟ فمن الطبيعى إذن أن تكون نزعته « شامية » ، فضلا عن حساسيته المعروفة تجاه السياسة المصرية بوجه عام فى ذلك الوقت . إلا أنه يبقى أن نقول إنه إنما يردد مقولة لها وجودها حتى الآن . فإذا انتقلنا إلى السنوات الأخيرة فسوف نجد أن الحديث عن التأثير المصرى على جامعة الدول العربية يقع مرادفا ، فى كثير من المناسبات ، للتأثير الأمريكى على الأمم المتحدة ، مع فارق كبير بالطبع بين سياسات الدولتين ونفوذهما وإمكانات كل منهما .

ثانيًا : لقد غذى شعور المصريين بزهو تاريخهم المجيد إحساسًا عربيا صامتا ، ينتقد بعض الممارسات المصرية فى كثير من المناسبات . فالعرب ، لا يقبلون من مصر الآن ما تعودوا قبوله من مصر عبد الناصر ، فقد كان الأخير ، بالنسبة للعرب ، رمزًا قوميا تجاوز الحدود القطرية ، وأصبح زعيم العرب قبل أن يكون زعيم مصر . وسوف أسوق نموذجا لبعض الكتابات المصرية التى تعبر عن روح الزعامة وتاريخها فى المنطقة : يقول « جمال حمدان» ، امتدادًا للعبارة التى قدمنا بها هذا الفصل :

« كانت تجربة الزعامة فى الشام الأموى قصيرة العمر ، متواضعة الأساس ، حتى لقد اضطرت ، لكى تبقى على نفسها ، أن تهاجر إلى قاعدة أرضية بعيدة هى المغرب الأوربى . كذلك ، من بعدها ، كانت تجربة العراق أطول عمرًا ، وأرسخ بنيانا ، بما لها من موضع ثرى عريض الثراء ، وموقع كان طليعيًا ـ موقف رأس الحربة فى العالم الإسلامى الممتد حينذاك نحو الشرق ـ ولكن موضع العراق كان يتضمن دائمًا جرثومة الضعف ، وهى نظامه النهرى ولهذا هوى عند أول إهمال . . . والواقع أننا ننسى أن تركز الزعامة مؤقتا فى كل من الشام والعراق ، فى صدر الدولة الإسلامية ، إنما يعكس الجغرافية التاريخية السابقة للإسلام فى الشرق الأوسط ، حيث إن هذا وذاك كانا مراكز السيطرة اليونانية والرومانية والفارسية على الترتيب » (٦٢).

---

(٦١) أنطون سعادة ـ « فى السياسة الدولية والوضع السورى » ـ ١٩٢١ ـ ١٩٤٩ ص : ٢٠٤ .

(٦٢) د. جمال حمدان ـ « شخصية مصر ـ دراسة فى عبقرية المكان » الجزء الرابع ـ ص : ٦٥٩ .

ثالثا : ينبغى أن نعترف أنه برغم كل الملاحظات حول جامعة الدول العربية تاريخا ودورا إلا أنها حققت بالفعل الحد الأدنى من التضامن العربى فى مناسبات كثيرة . ويكفى أنها صمدت قرابة نصف القرن لتكون رمزًا إقليميًا للوجود العربى . وقد يكون من المناسب ، أن نردد هنا ما قاله قبلنا الكثيرون عن أهمية تطوير جهاز الجامعة ، وتعديل بعض بنود ميثاقها حى يتواكب هيكلها التنظيمى وقانونها الأساسى ، مع التطورات الضخمة التى طرأت على المستويين الدولى والإقليمى عبر السنوات الماضية . فالتغييرات العالمية ، والتحولات على الساحة العربية ، فضلا عن دخول المنطقة أجواء السلام الشامل واحتمالات التعايش بين الفلسطينين والإسرائيليين فى ظل شرق أوسط جديد قد تسعى فيه القوى المؤثرة إلى تهميش الدور القومى للجامعة ، وكلها أمور تدفع الجامعة العربية لمراجعة كل أوضاعها ، والقيام بعملية نقد ذاتى شاملة ، تفتش فيها عن الأخطاء ، وتعالج نقاط الضعف ، وتقارن بين ما هو قائم وما يجب أن يكون .

وهنا تكون لنا ملاحظة جديرة بالاهتمام ، وهى أهمية أن تتمكن الجامعة من التفرقة بين ما هو ثابت وما هو متغير ، والتمييز بين تقاليدها التاريخية وضرورة تطورها وتحديث دورها والبحث فى مجالات جديدة لتنمية وظيفتها القومية ، وتأكيد وجودها فى السياسة العربية وفقًا لروح العصر وأطروحاته الجديدة ؛ إذ « تعلن عدة أقطار عربية أن سياستها هى الحفاظ على القيم التقليدية ، ولكن التقاليد لا يمكن الحفاظ عليها وكأنها متحجرة ، وما لم تدخل التقاليد بشكل إبداعى فى عملية التغيير فإنها تعمل على إعاقة التغيير المقترح أو رفضه »(٦٣).

رابعا : إن إعادة ترتيب الأوراق العربية تقتضى ، بالضرورة ، إعادة النظر فيما يمكن أن نطلق عليه « النظام العربى » ، والذى تعتبر الجامعة العربية التجسيد المؤسسى له ، وبالتالى يتعين على كل الأطراف العربية أن تساعد الأمين العام وجهاز الجامعة على تجاوز مشكلاتها والخروج بها من دائرة الجمود المحتمل أو التعويق المتعمد ، ويجب أن يدرك الجميع أن استمرار كيان الجامعة ـ بغض النظر عن كل الملاحظات والانتقادات ـ إيجابية قائمة ، تحسب للعمل العربى ، وتضاف إلى رصيده فى عصر التكتلات الدولية والتنظيمات الإقليمية . ولن يتحقق للجامعة مكانتها المطلوبة ، ولن تمارس دورها المنتظر ، ما لم يقرر العرب طواعية إعطاءها دفعة من الدعم السياسى ، تجعل قراراتها أكثر فاعلية وتأثيرًا .

وهنا لابد أن تذوب الهوية القطرية ، والنزعة الشعوبية ، فى بوتقة الحد الأدنى من العمل

---

(٦٣) أنطون زحلان ـ « البعد التكنولوجى للوحدة العربية » ـ ص : ٩٤ و ٩٥ . انظر أيضًا كتابنا « حوار الأجيال » ـ دار الشروق ـ القاهرة ١٩٩٣ (سلسلة مقالات حول تطوير القيم ـ ١٩٦٧) .

العربى المشترك ، الذى يتمثل فى وجود جامعة الدول العربية . « فمن خصائص النظام العربى ، أنه يحتوى على إشكالية تقوم على ثنائية منطق الأمة ومنطق الدولة ، ويعبر الأول عن شرعيات عربية منبثقة أو مستندة إلى تلك الهوية » (٦٤).

خامسا : إن طغيان المشرق العربى على جهاز الجامعة ، قد تقلص منذ انتقالها إلى العاصمة التونسية واستضافة مقرها هناك لفترة امتدت إلى عقد كامل من الزمان ، وهو أمر كان له نتائجه الإيجابية فى ارتباط شمال إفريقيا العربى بالجامعة وأسلوب عملها وطبيعة دورها . بل إننا ، حين كنا نتأمل وجود جامعة الدول العربية ومقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية معا فى تونس ، كنا ندرك حجم الفائدة غير المقصودة ، التى نتجت عن سياسات « كامب ديفيد » ، وانتقال الجامعة من مقرها الدائم فى القاهرة .

وواقع الأمر ، أن التوجه القومى للثورة الليبية ، والدور العربى الإسلامى لملك المغرب بالإضافة إلى تاريخ الثورة الجزائرية ونضالها المرير ، كل هذا قد جعل من وجود جامعة الدول العربية فى المغرب العربى تجسيدا لدوره القومى وتأكيدا لإسهامه العربى .

سادسا : يبقى على الجامعة ، أن تبحث فى أبعاد جديدة للعمل العربى ، من ذلك النوع الذى قد لا يختلف العرب حوله كثيرًا . ولذلك فإن مجالات مثل : المواصلات والاتصالات والخبرة التكنولوجية ، قد تكون نماذج لتطوير الجانب العملى فى دور الجامعة وتحديث طبيعة عملها . « فمن المهم التنويه بأن الفجوة التكنولوجية التى تواجه الأقطار العربية ، قد واجهتها أيضا الدول الأخرى فى فترات زمنية مختلفة من تاريخها ، وعلى سبيل المثال كانت اليابان حتى عام ١٩٥٥ تمتلك تكنولوجيا بتروكيمياوية أولية » (٦٥).

سابعا : إن اتساع حجم العضوية ، فى جامعة الدول العربية ، يبدو حتى الآن سلاحا ذا حدين ، إذ إن انضمام دول أخرى إلى الجامعة هو بالضرورة دعم لوزنها وزيادة لثقلها ، ولكنه فى الجانب الآخر يبدو تجاوزًا فى معيار العروبة ذاته ، ويخرج بالجامعة من دائرة المنظمة الإقليمية التى قامت على فلسفة قومية ، إلى مجرد منظمة فضفاضة لا تعبر العضوية فيها عن كل متجانس ، ويكفى أن نعلم ، أن جامعة الدول العربية تضم دولا لا يجيد رؤساؤها الحديث باللغة العربية ، وكان يمكن لهذه الدول أن تقطع شوطا فى التعريب كشرط لعضوية الجامعة فجنوب السودان مثلا ، تشيع فيه اللغة العربية على نحو يختلف كثيرًا عما كان متوقعا

---

(٦٤) د. ناصيف حتى ـ « النظام الإقليمى العربى . . إلى أين ؟ » مقال فى مجلة الهلال ـ القاهرة ـ فبراير (شباط) ١٩٩٣ .

(٦٥) أنطون زحلان ـ مرجع سابق ـ ص : ١١٠ .

وبذلك فإن عروبة السودان لم تعد قضية خلافية إذ يقول الجغرافى الكبير د. سليمان حزين : « إن هؤلاء العرب الذين صبغوا السودان بصبغتهم العربية الحاضرة ، إنما أتوا عن طريق مصر ولم يكن فى ذلك شىء من الغرابة ، فقد قضت الطبيعة منذ البُداءة أن يشارك السودان مصر فى كل شىء » [(٦٦)].

ثامنا : إن اختفاء الزعامات ، ذات « الكاريزما » ، من ساحة العمل السياسى العربى يعتبر عاملا مساعدا لنهوض الجامعة وليس العكس . فلقد وظفها جمال عبد الناصر لخدمة سياسته ، منذ دعوته للقمة العربية الأولى فى عهده عام ١٩٦٤ ، ولم يذكر العرب أيامها أن الجامعة هى صاحبة الدعوة وراعية المؤتمر ، بل كان الإحساس العام أن عبد الناصر هو صاحب الأمر كله ، وقد كان ذلك فى حد ذاته انتقاصا لدور الجامعة وإيحاء بتبعيتها لسياسة القاهرة ، أما الآن فالأمر يختلف ، إذ ليس هناك من يجبر الجامعة على اتجاه معين ، كما أن سطوة الزعماء عليها أقل بكثير من فترات سبقت .

تاسعا : يظل التحدى الحقيقى ، أمام الجامعة العربية ، هو كسر حاجز العزلة التى فرضت نفسها على أجزاء من الوطن العربى . وسوف يظل الخروج من المأزق القومى ، الذى تعرضت له أمتنا منذ غزو العراق للكويت ، بمثابة الاختبار الحقيقى لقدرة الجامعة على اجتياز أصعب مواجهة فى تاريخها كله . فحالة التردى العربية والانقسام الواضح ، يتركان بصماتهما الآن على ساحة العمل العربى ، ويقتضيان توظيف كل الجهود المخلصة والنيات الصادقة ، لإعادة التضامن العربى الضائع ، والتوازن القومى المفقود .

(٦٦) د. سليمان حزين - « حضارة مصر - أرض الكنانة » دار الشروق - القاهرة - ص : ١٨٩ .

خاتمة

طفنا عبر الصفحات الموجزة لهذا الكتاب ، الذى يدور محوره حول قضية واحدة ، هى تجديد الفكر القومى ، فى محاولة حالية لإحياء مضمون القومية العربية بصورة مختلفة عن ماضيها ، بحيث تستوعب التغيرات الضخمة التى جرت على الساحتين الدولية والإقليمية وتحتوى التحولات الواضحة التى حدثت فى الشارع العربى ، وتتفهم أيضًا التطورات التى لحقت بطبيعة الصراع العربى ـ الإسرائيلى وآفاق التعايش الحضارى والقومى الذى يحمله مستقبل المنطقة وتعترف فى الوقت ذاته بالخصوصية القطرية والمزاج الشعبى فى كل دولة عربية.

وقد يقول قائل : إننا حين نفعل ذلك ، فكأننا نفرغ القومية العربية من مضمونها الحقيقى، ونصل بها إلى مواجهة « برجماتية » ، بحيث يصبح الواقع هو المتغير المستقل ، بينما يمضى وراءه الفكر القومى ليكون هو المتغير التابع . ومثل هذا القول ، مردود عليه بأن القومية هى أساس نظرى لسياسة عملية فى النهاية ، ولا يمكن لهذا الأساس النظرى ، إذا أردنا له أن يجد فرصة التطبيق ويدخل حيز الواقع ، لا يمكن له إلا أن يتواءم مع الظروف ويواكب مقتضيات الحال ، وإلا تحول إلى مجموعة من النصوص التى لا مكان لها إلا فى دور الكتب ومخازن التاريخ .

ولقد اكتشفنا ، ونحن نتجول عبر كتابات جيل الآباء فى الفكر القومى العربى المعاصر أن المشاعر العاطفية قد غلبت على معظمها ، وسيطرت عليهم آمال وطموحات أوسع بكثير من الواقع الذى يجرى حولهم . بل إن ما وجد طريقه إلى التطبيق ، من هذه الكتابات القومية أو الحزبية ، قد بدا مختلفا تماما على أرض الواقع عنه فى مخيلة من كتبوه ، وضمير من نظروا له .

ولكننا ، فى الوقت ذاته ، نكاد نرى رأى العين أن هناك أمة عربية واحدة ، ذات خصائص مشتركة تبدأ من التاريخ ولا تنتهى بالجغرافيا ، وتمر بينهما عبر قنوات ثقافية

وسياسية واقتصادية واجتماعية ، فضلا عن تراث إنسانى واحد يعتمد على وحدة المشاعر الروحية والمعتقدات الدينية . ولذلك يكون من حقنا أن نتحدث ، فى خاتمة هذا الكتاب عن روح الأمة الواحدة ، التى تعتمد على صحوة العقل العربى ، وترتكز على يقظة الضمير القومى ، ونسجل للروح العربية القومية عددًا من المظاهر ، نتهيأ بها لمرحلة جديدة من فهم مختلف لطبيعة الفكر القومى العربى وهذه المظاهر هى :

أولا : إن نشوء الدولة القومية الحديثة فى الفكر السياسى ، قد اقترن بالخروج من إطار المسألة الدينية إلى إطار المسألة الوطنية . ولقد عبر عن ذلك « فرح أنطون » ، فى مقدمة كتابه « **ابن رشد وفلسفته** » ، منذ أكثر من تسعين عاما ، حين قال : « إن أولئك العقلاء فى كل ملة وكل دين فى الشرق ، الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين فى عصر كهذا العصر فساروا يطلبون وضع أديانهم جانبا فى مكان مقدس محترم ، ليتمكنوا من الاتحاد اتحادا حقيقيًا، ومجاراة التمدن الأوربى الجديد ، لمزاحمة أهله ، وإلا جرفهم جميعا وجعلهم مسخرين لغيرهم » .

ولقد عرفت أمتنا العربية ذلك التحول ، منذ نهايات القرن الماضى ، حيث جرت محاولات أولية لبعث الروح العربية فى مواجهة سطوة الأتراك ونفوذ الدولة العثمانية . وتمكن بعض الرواد ، فى تلك المرحلة المتقدمة ، من تحديد لزومية العلاقة بين الإسلام والعروبة ، وهى التى أدت فى النهاية إلى تمييز أمة عربية فى إطار إسلامى ، بدلا من ذوبانها فى محيط الدولة الدينية الكبرى . ويقول فى ذلك داعية الإصلاح ، الإمام المستنير « **محمد عبده** » :

« كان الإسلام عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا بعد أن كان يونانيًا . . . فلما سيطر الأعاجم على الدولة استعجم الإسلام وانقلب أعجميا » .

ثانيا : لقد كانت محاولة التحالف العربى الأوربى ضد الأتراك ، فى الحرب العالمية الأولى، مظهرا مبكرًا ، تكرر بعد ذلك فى مناسبات متعددة ، وبشخوص مختلفة ، ورموز متباينة . وكان ذلك يعنى فى النهاية أن العرب قد خرجوا من دائرة السياسة الدينية ، إلى ميدان السياسة القومية ، وعلى الرغم من أن تلك المواقف ، على امتداد التاريخ العربى الحديث ، لم تكن حركة واعية فى هذا الاتجاه ، إلا أن ظروفا كثيرة أحاطت بها هى التى وجهتها على النحو الذى سارت فيه ، بدءا من طموحات « الشريف حسين » أمير مكة وحتى قيام التحالف السياسى العسكرى ضد العراق بعد غزوها للكويت ، مرورًا بتحالفات عبد الناصر مع الاتحاد السوفيتى السابق ودول الكتلة الشرقية ، فى سنوات المد القومى الناصرى ، وتقسيمه للدول العربية بين ثورية ورجعية أو يسارية ويمينية ، وكلها مسميات رددناها فى سنوات الحلم القومى الضائع على امتداد الخمسينيات والستينيات .

ثالثا : إن للشام ، أو « سوريا الكبرى » ، مكانة خاصة فى تاريخ الفكر القومى للمنطقة ، ويبدو أن دورها قد بدأ مبكرًا ، يقول فى ذلك د. سليمان حزين : « ولأرض الشام وسوريا ، من هذا البيت العربى الكبير ، دورها الخاص . فالبداوة قد انطلقت من أرض الجزيرة ، واستقرت فى أرض الشام وسوريا التى كانت دائما موطن الحضارة العربية فى انتقالها من مرحلة البداوة الأولى إلى مرحلة التحضر الظاهر » .

ولقد استعرضنا ، فى تركيز موجز ، أهم التيارات القومية الحديثة فى الشام ، ورأينا الاختلاف الظاهر بين أبرز حركتين : إحداهما شديدة الحماس لمفهوم الوحدة العربية خارج حدود القطرية ، وهى حركة « حزب البعث العربى الاشتراكى » ؛ بينما الثانية تتحدث فى إطار فلسفى عن كيان واحد « لسوريا الكبرى » ، فى ظل مشروع إقليمى محدود ، ينادى بدولة « الهلال الخصيب » ، ونعنى بها « الحزب السورى القومى » . وهى كلها تعكس فى النهاية اهتماما متصلا ، جعل من المسألة القومية ـ بدعاتها وخصومها ـ الشاغل الرئيسى فى فكر ساسة الشام ومثقفيه . وهذه النقطة تحمد لهم بلاشك ، ولقد وعاها عبد الناصر حتى النخاع ، وظل طوال حياته عاشقا لسوريا ، وكان مجرد التلويح له بها يدفعه إلى مواقف مصيرية ، مثلما حدث فى قبوله للوحدة عام ١٩٥٨ ، واستعداداته التظاهرية لدخول حرب ١٩٦٧ . بل إن الرجل قد رحل عن عالمنا وفى وجدانه حلم لا يموت ، بأن يزيل آثار العدوان الإسرائيلى ، ويحقق حلم الوحدة العربية ، ويخطب فى جماهير دمشق التى قدمته لأمته العربية خير تقديم ، والتى دفعته بحماس عاطفى إلى مواجهات ساخنة ضد مسميات لم يعد لها ـ على ما يبدو ـ وجود فى القاموس السياسى المتداول حاليا : إنها مسميات تدور حول النضال الذى قاده عبد الناصر فى عصر مختلف ضد الإمبريالية والصهيونية والاستعمار الجديد .

رابعا : إن ملف عروبة مصر الذى ما زال مفتوحا ، خصوصا بعد سنوات الاختلاف فى اجتهادات التسوية تجاه الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، إن هذا الملف قد آن له أن يغلق حيث يدرك المصريون أن عروبتهم ذات بعد عملى واضح ، يتمثل فى دورهم الحيوى داخل المنطقة وليس أمام مصر إلا أن تسعى لتوظيف انتمائها العربى لخدمة دورها السياسى ، وإن كانت هناك مشكلات تثور أحيانًا فى العلاقات العربية ـ المصرية ، فإن مردها يرجع إلى إحساس مستتر ومبالغ فيه أحيانًا بالذات المصرية ، وإلى بعض مظاهر الحساسية المكتومة من بعض الشقيقات العربيات تجاهها ، وكلها على كل حال رواسب طبيعية لتاريخ العلاقة بين الدولة المحورية وجيرانها ، فى أقاليم متعددة من عالم اليوم .

ولعل النموذج الهندى ـ الذى عشت سنوات بالقرب منه ـ هو خير مثال لعلاقة تبادلية

مماثلة فى إقليم جنوب آسيا . ولكن الفارق فى الحالة المصرية العربية ، هو أن العاطفة القومية تعطيها إطارًا مختلفًا ، وتغلفها بشعور عربى ظاهر . فكل العرب يحبون مصر ، ويتطلعون إليها تاريخا وأرضا وشعبا ، حتى لو كانت لهم ملاحظاتهم السلبية على بعض الممارسات السياسية ، التى قد تصدر عن القاهرة التى يرون فيها عاصمة العرب الكبرى .

خامسا : إن بعض الظواهر على الساحة العربية ، يمكن أن تكون عاملا إضافيا لإنعاش المد القومى وإحياء أمل الوحدة ، ولو على مستوى إعلامى ثقافى ، دون الوصول إلى شكل سياسى دستورى . ولعل دور الثورة الليبية يمثل أحيانًا نموذجًا فى هذا الشأن . كما أن هناك محاولات فكرية ، تجرى على كل المستويات ، يحضرنا منها ذلك « المؤتمر القومى الرابع » الذى انعقد فى بيروت ، بين العاشر والثانى عشر من مايو (أيار) ١٩٩٣ ، والذى ضم صفوة المفكرين العرب والمثقفين من كل الأقطار ، وخرج المؤتمر بتوصيات وقرارات تدعو إلى إستراتيجية عربية موحدة وخطة عمل قومى شامل .

كما أن الملاحظ أصلا ، أن المسألة القومية تثور دائما بمناسبة الحديث عن الأمن القومى العربى ، وأذكر أننى ألقيت محاضرة حول ذلك الموضوع ، فى افتتاح الموسم الثقافى « لنادى الجسرة القطرى » فى الدوحة بدولة قطر عام ١٩٨٩ ، وقد ضمنت موجزًا لها فى ملحق هذا الكتاب . ذلك أننا نؤمن بأن الأمن القومى العربى له مفهومه المعاصر ، الذى يرتبط بالمسألة القومية كأساس نظرى لتماسكه ووحدته ، كما أننا ضد اختزاله ليصبح فى إطار ضيق ، يقف عند حدود أمن منطقة الخليج وحدها .

سادسا : إن الأزمة التى طرأت على الساحة العربية ، فى الثانى من أغسطس (آب) ١٩٩٠ ، قد قلبت موازين القوى ، وسددت طعنة مسمومة لإستراتيجية التضامن العربى . ولن نتجاوز آثار تلك المحنة ، كما لن نتمكن من الخروج من دائرة هذا المأزق القومى ، إلا بتغليب المصلحة القومية العليا والتجاوز عن المرارة التى تركتها أحداث تلك الأزمة .

فالشعب العراقى ، له إسهاماته القومية ، ورصيده الضخم فى تاريخنا الإسلامى العربى وهى أمور لا يمكن إنكارها ، أو إغفال قدرها ، مهما كانت الظروف والأسباب . والشرعية العربية سوف تظل دائما محل احترام عربى ، إذا ما وعى الجميع درس المحنة ، واعترفوا بأخطائهم ، فى محاولة نقد ذاتى قومى أمين .

سابعا : إن الثقافة العربية ، هى رصيد هذه الأمة ، وجوهر بقائها ، وركيزة حضارتها . فالحضارة فى النهاية هى نسق ثقافى ، يستند إلى منظومة فكرية متجانسة ، تتقادم بفعل تراكم الخبرات وتواتر الأحداث ، اعتمادًا على حس إنسانى متصل . والثقافة العربية ، هى الرابطة

الأم التى جمعت العرب فى جميع المناسبات ، وتحت كل الظروف ، رغم القطيعة السياسية أو التنافس الاقتصادى ، أو التباين الاجتماعى . ولقد أشرنا إلى مضمون ذلك ، فى كلمة لنا أمام ندوة عن « الثقافة العربية فى عالم متغير » بالقاهرة عام ١٩٩٢ . ولقد رأينا أن نضعها أيضًا بين يدى القارئ فى ملحق هذا الكتاب ، وتزداد قيمة البعد الثقافى للرابطة القومية بين العرب إذا استوعبنا التطورات الجارية فى فلسفة العلاقات الدولية والتى تتحدث عن صراع الحضارات بديلاً عن عصر الحرب الباردة بين القوى الكبرى . . ولقد عبَّر عالم السياسة الشهير بجامعة « هارفارد » " Samuel P. Huntington " عن ذلك الطرح الفكرى الجديد فى مقال بمجلة « الشئون الدولية » واعتبر الحضارة الإسلامية العربية طرفًا فى ذلك الصراع الذى تبدو ملامحه فى الأفق وتلوح إرهاصات ظهوره فى المستقبل المنظور .

ولسنا نجد ختاما ، يجسد الروح القومية العربية بمضمونها الثقافى ، وحسها الحضارى وتراثها الأصيل ، أفضل من كلمات قالها فليسوف الوضعية المنطقية ، المفكر العربى الراحل د . زكى نجيب محمود ، إذ يقول فى كتابه « تجديد الفكر العربى » :

« إن هذا الجمع بين العقل والوجدان ، لا يتمثل فى تراث ثقافى بمثل الوضوح الذى يتمثل به فى الثقافة العربية وتراثها ، فلئن غلبت ثقافة الوجدان على تراث الشرق الأقصى من هند وصين ، وغلبت ثقافة العقل ـ فلسفة وعلما ـ على تراث أوربا من يونانها فنازلا إلى يومنا فقد كان فى شرقنا العربى هذا الجمع المتزن بين عقل ووجدان . ولست أقول ذلك عن زهو ودفاع ، إنما أقوله من وقفة المؤرخ للثقافة ، المحلل لخصائصها ، ينظر فيما قد حدث بالفعل وما قد نتج بالفعل ، ثم يصدر الأحكام » .

. . ومهما اختلفت الرؤى وتباينت الأفكار ، فنحن جميعا نؤمن بالأمة العربية الواحدة وروحها المتجددة ، ونبضها الذى لا يتوقف ، ودورها الذى لا ينتهى . ولا نعزل حاضرها عن عالم يموج بكل التيارات ، ولا نفصل رؤية مستقبلها عن صراع قادم بين الحضارات . . ونكاد نلمح فى الأفق رياحًا عاتية ، تحمل معها همومًا جديدة ، قد تجسد مواجهة تاريخية أخرى ، تكون الحضارة العربية الإسلامية طرفًا فاعلاً فيها .

ملحق الكتاب

موجز من بعض المحاضرات الحديثة للمؤلف والتى تدور حول موضوع الكتاب

السلام والأمة الواحدة (*)

تجتاز الأمة العربية مرحلة حرجة من تاريخها ، هى بمثابة اختبار حقيقى للمضمون القومى لدى هذه الأمة ، إذ تخضع العلاقات المصرية ـ العربية لطبيعة ذلك الحدث الخطير الذى فتح بابا للسلام فى الشرق الأوسط ، بعد أربع حروب على امتداد الثلاثين عاما الأخيرة .

وتبدو خطورة الأمر فى الأسلوب الذى تمارس به بعض الحكومات العربية رفضها لسياسة مصر فى معالجة أزمة الشرق الأوسط ، فقد كان يمكن لتلك الحكومات أن ترفض ما تشاء من الاتفاقات وما ترتبه من التزامات ، ولكن أسلوب الرفض يجب أن يضع فى حسابه أن العرب أمة واحدة ، وأن الهجومين السياسى والإعلامى على مصر إنما هما خدمة حقيقية لتيار يسعى ـ عامدا أو غافلا ـ لعزل مصر عن أمتها العربية .

فالأمر يبدو وكان حكومات جبهة الرفض تتناول أحداث المنطقة بأسلوب شعوبى وليس بمنطق عروبى . فهم يتصرفون ، وفى خلفيتهم تقسيم تقليدى يضع مصر فى جانب والوطن العربى فى جانب آخر . وهو ليس تقسيما جديدًا ، ولكنه بدعة درجت عليها بعض الدراسات القومية والكتابات الحزبية فى المشرق العربى لسنوات طويلة .

كذلك فإن الرافضين يقعون فى سقطة أخرى ، هى تجاهلهم الكامل للظروف الموضوعية والمؤثرات المحيطة بالمواطن المصرى ، الذى ينوء كاهله بهموم ثقال ، فى تراكمات سنوات من الترقب التى صنعتها حالة اللاحرب واللاسلم ، إلى جانب ضغط الإجهادين السياسى والاقتصادى اللذين أصابا المصريين بعد سنوات المواجهة مع الاستعماريين القديم والجديد بزعامة جمال عبد الناصر والتى انتهت بانتكاسة وقتية فى المدى القصير ، كانت مبررا كافيا لدى بعض المصريين ليكفروا بمعطيات تلك المرحلة ، وفى مقدمتها المد العربى الكاسح الذى عرفته تلك السنوات . . لذلك لم يكن منطقيًا ، وربما أخلاقيا ، أن يتناسى الرافضون ظروف مصر الخاصة مفترضين أن واجبها هو العطاء المستمر والتضحية الدائمة ، برغم ما يراه أبناؤها من تناقضات عربية فى الثروة وتوزيع ظالم

(*) الأهرام أول أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٨ . (فى أعقاب توقيع إطارى كامب ديفيد) .

للأعباء القومية تحمل المصريون ـ بغير جدال ـ النصيب الأكبر منها دما ومالا وعرقا ، خلال السنوات الثلاثين الأخيرة .

وقد يرد على المنطق الذى أسوقه أن مصر قد خاضت حروبها دفاعا عن الأمن القومى المصرى قبل أن تكون دفاعا عن أمن الأمة العربية . وذلك قول صحيح فى جزء منه ، إذا سلمنا بالتداخل التاريخى بين مفهوم الأمن القومى المصرى ومفهوم الأمن العربى ، على اعتبار أن غزاة مصر غالبا ما قدموا إليها من الشرق عبر سيناء بعد اجتياحهم للمشرق العربى ولكن يجب أن نتذكر أيضا أن تاريخ المشكلة الفلسطينية منذ قيام إسرائيل قد احتوى عددا من المنعطفات التى كان يمكن لمصر فيها أن تخرج عن دائرة الصراع ، محققة لأمنها القومى مفهوما محدودًا لا تتجاوزه . بل إننى لا أجافى الحقيقة لو قلت إن الصمود المصرى هو الذى صنع الصمود العربى ، منذ أن انطلقت كتائب الجيش المصرى إلى فلسطين فى ١٩٤٨ ، معززة بقوات المتطوعين من شباب مصر الذين استشعروا الخطر فى وقت لم يكن فيه انتماء مصر العربى قد تبلور بصورته التى تحددت بعد ذلك بسنوات . .

تبقى بعد هذه الملاحظات ، وربما قبلها ، أن الرافضين لا يقدمون بديلا منطقيا يسمح بالموازنة بين ما يجرى من أحداث وما يرفعون هم من شعارات . فإذا كان الرفض الإيجابى حقا لمن يعملون فإن الرفض السلبى مأساة من يقولون !

إننى لا أختلف كثيرًا مع المقولة الشهيرة « إن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة » ، ولكن ذلك لا يتناقض مع منطق آخر يرى أن كثيرًا مما أخذ بالقوة يمكن أن يسترد بالتفاوض خصوصًا إذا كانت البدائل محدودة للغاية نتيجة أسباب متداخلة ليس سهلا الخوض فيها . . كما أنه يبدو أن الأمم كالأفراد أحيانا ، تبلغ سنوات الحماس الملتهب ثم تتجاوزها إلى سنوات التعقل الهادئ ، وتقبل فى الأخيرة كثيرًا مما رفضته فى الأولى . . حقا إن لحروب التحرير بريقها الساطع وشرفها الذى لا ينكره عدو أو صديق ، ولكن للسلام أيضا سحر الحياة الباقية وأمل المستقبل المرتقب .

تبقى بعد ذلك ، القضية الجوهرية التى يجب أن تنصرف إليها دراساتنا الجادة واهتمامنا الحقيقى ، وهى التى تتلخص فى أن السلام بداية لطريق صعب وشاق . فكما أنه نهاية للفصل الدامى من مسرحية الوجود على أرض المنطقة ، فهو بداية لفصل آخر فيه من التحدى الحضارى بعناصره الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ما يجب أن يدعونا إلى الوعى العميق والإدراك الكامل لمقتضيات المرحلة القادمة . إن أسلوب حياتنا ونحن نحارب إسرائيل ، ينبغى أن يختلف تماما عن أسلوب حياتنا بعد إقرار السلام معها . فعندما يتحقق السلام سوف نواجه إسرائيل مواجهة من نوع آخر ، يختلط فيها التنافس بالتعاون ويبدأ نوع من صراع العقول والطاقات البشرية بعد أن انتهى صراع المدافع والدبابات والطائرات . إنه صراع من نوع جديد يقتضى من المصريين الإلمام ببعض المحاور الأساسية وأهمها ثلاثة :

أولا : إن عروبة مصر ليست مسألة تكتيكية ، ولكنها حقيقة تاريخية . ويجب ألا نقع فى الخلط الشائع بين الثابت والمتغير فى إطار « متغيرات » حياتنا السياسية . وحتى لو تجاوزنا ـ افتراضا ـ المفهوم التقليدى لعناصر القومية ، فإنه يبقى بين مصر وأمتها العربية ذلك النسيج المتشابك من المصالح المشتركة ، والوحدة الإستراتيجية ، التى تسهم فيها جغرافية المنطقة فضلاً من تاريخيها السياسى والعسكرى . . ولا يتعارض ذلك مع حقيقة أن لمصر شخصية متميزة فى الوطن العربى تستند إلى حجمها السكانى ، وتاريخها الحضارى ، وموقعها المتوسط، بالإضافة إلى دور مصر فى الحفاظ على الثقافة العربية ، وبث التراث الإسلامى وهو دور له خطورته وأهميته . فحتى لو فترت الروح القومية فى مصر ـ إلى حين ـ فإنه سوف يبقى لها فى أمتها العربية رصيد ثابت يتصل بدورها الثقافى الرائد بأسلحته ابتداء من الكتاب ومرورا بالفيلم ووصولا إلى الأغنية . دعنا نقولها بطريقة أكثر تحديدًا : إن بين مصر وأمتها العربية مصالح مشتركة وتأثيرًا متبادلاً ، ويتوقف مدى نجاح سياسة مصر العربية على قدرة صانعى القرار السياسى المصرى فى الموازنة بين الاعتبارات المحلية والمقتضيات القومية ، وتحديد نقاط الالتقاء على منحنى العلاقة بين الطرفين ، فى إطار التسليم بأن عروبة مصر ليست رداء نرتديه حين نريد ونخلعه متى نشاء .

ثانيا : إن السلام مع إسرائيل سوف يمثل للأمة العربية ـ شاءت أو لم تشأ ـ تحديا حضاريا يعكس نفسه فى كل اتصال يومى ، وإن كان هناك من يبالغون فى توصيف مخاطر السلام ومحاذيره خصوصا ما يتصل منها بالتعامل الاقتصادى مع إسرائيل ، ومدى إمكانية نجاحنا فى إيجاد حافز حقيقى تتحول به ميزاتنا الكمية إلى ميزات كيفية . والتخوف الزائد من السلام ، بدعوى أن التعامل التجارى والمصرفى قد يمثل ابتلاعا إسرائيليا للمنطقة ، يمكن أن يكون فى حقيقته تقنينا للتخلف واستمراء لوضعية جامدة يجب أن نتجاوزها ، ونحن أمة غنية بالعقل والثروة لو أحسنت التزاوج بينهما . إنها قضية تذكرنا بآراء فلسفة دعاة الحماية الجمركية فى القرن التاسع عشر ، ولكن بينما كان لأولئك الاقتصاديين مبررهم فى حماية الصناعات الوطنية ، فإن الأمر هنا يختلف ، فالقياس مع الفارق الكبير ، لأن الحماية الجمركية شىء والعزلة التجارية شىء آخر .

كذلك فإنه يتعين علينا ألا نبالغ فى الوقت ذاته فى كفاءة الطرف الآخر وميزاته العقلية تأثرًا بالمفهوم المتداول فى التراث الإنسانى عن مهارة اليهودى وبراعته فى شئون المال والتجارة ذلك أن سنوات الصراع مع إسرائيل قد خلقت فى أذهاننا صورة خيالية عن شعبها وكأن لليهودى رأسين يفكر بهما متميزاً عن باقى البشر !

ثالثا : وهنا نأتى إلى أخطر قضايا المواجهة بعد السلام ، وأعنى بها قضية الديمقراطية فى الوطن العربى ، إذ تتمتع إسرائيل بنظام ديمقراطى تروج له بالدعاية فى العالم كله ، وتصنع من نفسها قطبا متميزا فى الشرق الأوسط . وليس بعيدا عن الأذهان مشهد مناقشات البرلمان الإسرائيلى (الكنيست) حول اتفاقيتى كامب ديفيد ، خصوصا مسألة المستوطنات ، وكيف احتل الأمر مكانا بارزًا فى أجهزة

الإعلام فى أنحاء العالم ـ بوقائعه الطبيعية أو المفتعلة ـ وكأنه «إعلان مدفوع» عن الدولة الديمقراطية، ومراحل اتخاذ القرار السياسى فيها .

إنه يتعين على الأنظمة العربية بالضرورة أن تراجع فلسفة الحكم فيها ، على نحو يكفل أكبر قدر من المشاركة السياسية ويستوعب فلسفة العصر ، فلسفة دولة كل الآراء .

العلاقات المصرية ـ العربية ..
رؤية جديدة (*)

يتردد فى الأوساط الدولية والعربية والإسرائيلية حديث متصل فى الشهور الأخيرة ، حول ما يطلقون عليه عودة مصر إلى العرب أو عودة العرب إلى مصر . ويثير الموضوع بالتداعى لدى من يناقشونه عددا من المسائل المرتبطة به ، مثل احترام مصر لالتزاماتها التعاقدية مع إسرائيل، ومدى تعارض تلك الالتزامات مع واجبات مصر القومية وانتمائها العربى . والأمر فى ظنى يحتاج من العرب إلى فهم أعمق لدور مصر ، كما يحتاج من مصر إلى وعى أكبر بإستراتيجية إسرائيل . . ، إذ إن تصوير القضية على أن مصر هجرت العروبة عدة سنوات تعود بعدها إلى أمتها العربية ، تغتسل من رحلة التحرير الشاقة . وتعتذر عن خطيئة السلام مع إسرائيل ، هو تصوير مغلوط فيه تسطيح للحقيقة وعفوية فى الإدراك . .

ولعله من الضرورى استقراء التاريخ القريب ، للتعرف على تطور دور مصر العربى وهو الذى مر بمراحل ثلاث ، لكل واحدة منها سمات متميزة :

(١) مصر مركز الثقافة العربية ـ الإسلامية :

وهى مرحلة امتدت عبر قرون طويلة ، منذ أن تحدد لمصر دور خاص فى رعاية الثقافة الإسلامية وارتفع الأزهر منارا للعلم والدعوة . وبرز لمصر دور قيادى أملته ظروف تاريخية وساعدت عليه عوامل جغرافية ، ولعب العنصر البشرى المصرى كما وكيفا دورًا رائدًا فى حماية التراث الحضارى للمنطقة والتعبير عن التزاوج بين العروبة والإسلام . بل إن البعثات التعليمية المصرية قد سعت إلى عدد من الدول العربية ، منذ العشرينات ، حيث قام المعلم المصرى بتربية أجيال من أبناء أمته العربية ، قبل أن يشيع ثراء البترول أو يلمع بريق دنانيره . إن سعى مصر إلى الدول العربية قد بدأ فى وقت كانت مصر تتمتع فيه بأعلى معدلات الدخل القومى بين شعوب المنطقة ، وهو ما يعطى لمصر

(*) الأهرام ٧ إبريل (نيسان) ١٩٨٢ .

ودورها الثقافى مكانه الحقيقى ، ويبعد عن أبنائها تاريخيا شبهة الاستغلال أو مظنة الاندفاع وراء ثروة الأشقاء . كما أن مصر قد احتكت بكل التيارات السياسية والدينية على امتداد خريطة الوطن العربى كله ، وكان احتكاكها إما لإثراء تلك التيارات أو للحد من اندفاعها حسب ما أملته الظروف الدولية والمتغيرات المحلية . . ألم تتعامل مصر الدولة مع دعاة المذهب الوهابى فى الشرق ؟ والثورة المهدية فى الجنوب ؟ والحركة السنوسية فى الغرب ؟ . .

(٢) مصر تتزعم العرب قوميا ودوليا :

تحددت نظرة السياسيين المصريين إلى الدول العربية قبل ١٩٥٢ بدور مصر الثقافى والتعليمى إلى جانب البعد الإسلامى لمفهوم عروبة مصر . . صحيح لقد دعمت مصر حركات التحرير العربية وتجاوبت مع نضال العرب فى المشرق والمغرب من أجل الاستقلال ، ولعبت دورًا قياديا فى إنشاء جامعة الدول العربية ، ولكن ظل هناك حاجز واضح بين ما هو مصرى وما هو عربى . . حقا لقد كانت هناك أحيانا ومضات عابرة من بعض السياسيين المصريين بالإشارة إلى عروبة مصر ، ولكن كانت هناك فى المقابل إشارات عديدة وتصريحات مختلفة لمعظم السياسيين المصريين عن الشخصية المصرية المتفردة التى لا تذوب فى كيان قومى أكبر . وحين أطل الخطر الصهيونى من فلسطين منذ قرابة نصف قرن ، لم تخلط مصر الدولة والشعب بين تعاطفهما ودعمهما للجانب الفلسطينى وبين رعاية الأقلية اليهودية فى مصر وتمتعها بكافة امتيازاتها السياسية والمالية . ولعل شخصية السياسى والاقتصادى المصرى « إسماعيل صدقى » هى نموذج لهذا النوع من التفكير ، الذى يفصل بين الرؤية المصرية المستقلة وبين الالتزام القومى الذى يقوم على أسس عقلانية وليست عاطفية . . بل إن زعامات مصر السياسية فى القرن الأخير ، منذ عرابى إلى سعد زغلول والنحاس مرورا بمصطفى كامل ومحمد فريد ، ركزت على مفهوم الأمة المصرية ذات الانتماء الإسلامى ، دون تركيز على هويتها العربية . . إلى أن جاء جمال عبد الناصر قائدًا لثورة يوليو ، فأعطى لمصر دورًا قياديا فى سياسة العالم العربى ، وهو الذى حدد فى كتابه « فلسفة الثورة » عام ١٩٥٣ الدائرة العربية كمحور أول فى سياسة مصر الخارجية .

ولاشك أن وجود إسرائيل والمخاطر المتتالية التى أدركها العرب من أهدافها وسياساتها كانت المبرر القومى لدعوة العرب إلى الوحدة ، أو حتى التضامن ، حيث ظلت مصر من خلال أربع حروب على امتداد ثلاثين عاما خط الدفاع العربى الأول فى مواجهة إسرائيل . وجدير بالإشارة هنا إلى أنه قد ظهرت علاقة تبادلية بين دور مصر عربيا ووزنها دوليا . فلاشك أن مكانة مصر الدولية بعد باندونج وحرب السويس ، ثم دورها الرائد فى تأسيس حركة عدم الانحياز ، كل ذلك انعكس على وضعها العربى ، وكان بمثابة اعتراف من المجتمع الدولى بدور مصر القيادى فى المنطقة واعتماد زعامتها للعرب . . . فكما أن مكانة مصر الدولية ومركزها التفاوضى ، خصوصا فى مواجهة القوى الكبرى ، قد تزايدا مع تزايد حجم تأثيرها فى المنطقة العربية ، فإن المشاركة المصرية الفعالة فى حركة

العالم الثالث ووضعها المتميز سياسيا بين الدول النامية ، قد أضافا إلى صورة العرب أبعادا جادة أمام العالم ووزنا متزايدا فى المجتمع الدولى . .

(٣) مصر تسبق العرب إلى التسوية السلمية :

منذ نكسة ١٩٦٧ ، اتخذت السياسة الخارجية المصرية مسارا مختلفا تأثرا بالمعاناة من آثار الحرب حيث دخل اصطلاح (أزمة الشرق الأوسط) إلى قاموس المشكلات الدولية ، ليفرض نفسه مادة لحديث لا يتوقف فى أروقة الأمم المتحدة ، أو المؤتمرات الدولية ، أو المحادثات السياسية بين أطراف الصراع من جانب والقوى الكبرى ذات التأثير فيه من جانب آخر ، ولقد اكتسبت مصر خبرة متميزة ، نتيجة إسهامها المتصل فى حركة المجتمع الدولى ، وتزايد فهم مصر لأهداف إسرائيل ومخاطر استمرار احتلالها للأراضى العربية ، وطبيعة القوى المستعدة لدعم إسرائيل بغير حدود . وبدت الصورة قاتمة أمام صانع القرار السياسى فى القاهرة ، الذى يرى المعاناة القاسية التى يعيشها الشعب المصرى ، إلى جانب احتلال جزء من ترابه الوطنى ، والثمن الباهظ الذى تدفعه كثير من فئاته فى ظل ظروف اقتصادية بالغة الصعوبة . حتى الإدارة المصرية ـ وهى واحدة من أقدم النظم الإدارية على الأرض ـ كانت قد وصلت مرحلة التوقف تقريبا . . ثم كانت قمة السخط حين خرجت الجماهير الغاضبة إلى الشارع فى العاصمة والمدن الكبرى ، حتى أننى لا أبالغ كثيراً فى تصورى ، لو قلت إن قرار زيارة القدس فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ قد ولد فى ١٩ يناير ١٩٧٧ . .

ثم جاءت كامب ديفيد ـ بكل مالها وما عليها ـ ووقعت مصر اتفاقية السلام مع إسرائيل ، وقاطع العرب مصر قطيعة لا تخلو من مرارة بلغت حد اليأس أحيانا ، خصوصا بالنسبة للفلسطينيين الذين يحملون السلاح لتحرير وطنهم ، وهم أصحاب قضية يكاد العالم كله يعترف اليوم بعدالتها . ودخلت القطيعة العربية لمصر عامها الرابع ، ومصر تمضى فى طريقها الذى اختارته ـ بغض النظر عن تقييم ذلك الطريق . ورأى العرب ، الذين كانوا يتحدثون كثيرا عن اعتماد الاقتصاد المصرى عليهم ، أن مصر لم تبلغ حد الانهيار كما توقع بعضهم ، وأن مصر قد أسقطت من قائمة إيراداتها أموال الدعم العربى . وهذه نقطة هامة فى نظرى لتحديد مستقبل العلاقات بين مصر والحكومات العربية . فحيث لا توجد لمصر تطلعات مالية تجاه العرب ، فلن تكون هناك أيضا شروط سياسية من جانبهم يطالبون مصر بها . . ولا يخفى أننى هنا أتحدث عن علاقات مصر بالحكومات العربية أما مصر بالنسبة للجماهير العربية ، فهى هى دائما مركز الاهتمام ومحط الأنظار ، حيث تترقب إنتاج أدبائها وفنانيها . ويلعب الكتاب والفيلم والأغنية دور السفير الثقافى بين شعب مصر وجماهير أمته العربية . .

* * *

فإذا كانت هذه هى بإيجاز مراحل ثلاثا مرت بها العلاقات المصرية ـ العربية فإن استقراءها يعين

على تصور مستقبلها ، ويقدم الرؤية الواضحة لعلاقات سليمة تربط مصر بالدول العربية ، بحيث تتجاوز مرحلة العاطفة القومية لتبلغ مرحلة الرشد القومى بكل ما تطرحه من موضوعية وجدية وثبات .

. . خلاصة القول أن الرؤية الجديدة للعلاقات المصرية ـ العربية يجب أن تقدم لأشقائنا العرب صورة مصر الحقيقية ، بكل جوانبها وأبعادها ، حتى تكون هناك صيغة دائمة لعلاقات واعية ، فى إطار قومى صحيح ، يسمح لمصر بالعطاء الثقافى المستمر والتعاون الاقتصادى المتبادل ، كقاعدة راسخة لعلاقات سياسية سليمة ، فيها من التضامن أكثر مما فيها من الشعارات ، وفيها من فهم المتغيرات الدولية والمحلية أكثر مما فيها من توزيع الاتهامات .

محــاضـرة
نحـو مفهـوم معـاصر
للأمـن القـومى العـربى (*)

بداية ، أشعر بسعادة غامرة ، وأنا ألتقى بهذا الجمع الكريم من مثقفى الخليج ، وأبناء الأمة العربية من كل أقطارها ، فى هذا المنتدى الثقافى . وأتوجه بالشكر إلى نادى الجسرة الثقافى الاجتماعى على هذه الدعوة الكريمة ، التى وجهت إلى منذ وقت طويل ، حتى كان لى شرف الحديث إليكم فى هذه الأمسية .

وموضوع الليلة حديث ذو شجون ، لأنه يتصل بأمر حيوى نردده جميعا ، وهو الخاص بالأمن القومى العربى .

تعبير الأمن القومى ارتبط فى الأذهان ، ولسنوات طويلة ، بالدراسات الإستراتيجية والعسكرية وتصور البعض أن الأمن أمر يقتصر على حماية الحدود الدولية لبلد ما ، والحفاظ على السلامة الإقليمية له . والأمر عندى غير ذلك ، لأن هناك تداخلات كثيرة ، طرأت فيما بين الحربين ، أعطت هذا الموضوع أبعادًا جديدة ، وجعلت له مفهومًا معاصرًا ، يختلف عن الشكل التقليدى أو المفهوم الكلاسيكى له . لقد تصورنا ـ وتصوّر معنا الكتاب الإستراتيجيون فى مختلف دول العالم ـ أن موضوع الأمن القومى موضوع يتصل بإمكانية الدفاع عن الدولة ، وتأمين حدودها ، والقدرة على شن الحرب عند اللزوم دفاعا عن هذه الحدود . ولكن الشواهد التاريخية ، فى السنوات الأخيرة ، تؤكد أن الخطر لا يأتى دائما من خارج الحدود ، وأنه ليس بالضرورة أن تكون هناك حرب عسكرية تلتقى بها الجيوش وتتقاتل فيها الدول ، ولكن الأمر قد يختلف عن ذلك كثيرًا . من هنا ، فإنى أتصور أبعادا جديدة لمفهوم الأمن القومى .

فالالتقاء بين الزمان والمكان ، بين عنصر التاريخ وعنصر الجغرافيا ، أو ما نطلق عليه أحيانًا

(*) ألقاها المؤلف فى افتتاح الموسم الثقافى « لنادى الجسرة » القطرى ـ الدوحة ٤ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٨٩ .

المستوى الرأسى والمستوى الأفقى ، هو الذى يحدد الظروف الأمنية لبلد ما أى الالتقاء بين هذين المحورين : التاريخ وما صنعه فى تكوين بلد معين ، ثم الجغرافيا التى حددت موقع هذا البلد على الخريطة . وليست هناك بلاد اختارت بالتحديد موقعها على الخريطة ، ولكن هذه معطيات تاريخية يتلقاها أبناؤها عبر القرون كمسلمة يصعب تغييرها . من هنا لعبت منازعات الجيران ، والدول المتجاورة فى العالم ، دورًا رئيسا فى مفهوم الأمن القومى أيضا . فتكاد تكون أكثر من ٩٠٪ من المنازعات الدولية منازعات دول متجاورة ، لأننا لم نحدد موقعنا على الخريطة ، وبالتالى فهذه معطاة تاريخية جغرافية لا يمكن تغييرها . هذا البعد هو الذى يحدّد المدخل لطبيعة الأمن القومى لبلد ما وهو الذى يتحدد بداية من هذه المعطاة التى يستحيل تغييرها .

فالبعد الجيوبوليتيكى ، هو بعد أساسى ، وتقليدى ، وغير قابل للتغيير فى تحديد المدخل لفهم الأمن القومى لبلد ما .

إذا انتقلنا من هذا البعد ، فسوف نجد بعدًا جديدًا يجب أن نتأمله بكثير من الاهتمام ، وأعنى به البعد الاقتصادى إذ لا يخفى عليكم أن معظم المشكلات فى عالم اليوم ذات مدخل اقتصادى وليس فى هذا جنوح للتفسير الأممى الذى تبناه الماركسيون ، فالمعنىّ بالاقتصاد هنا ، ليس حركة التاريخ الاقتصادى كما يريدونها ، وليس التصادم بين الطبقات ، ولكن المعنى الاقتصادى ينصرف إلى مفهوم ندرة الموارد . وواضح أن تزايد سكان اليوم فى العالم كله مع الإيقاع السريع لحياة العصر والتقدم التكنولوجى ، كل ذلك أدى إلى زيادة طبيعة الحاجات للأفراد والجماعات فأصبحت المشكلة الاقتصادية هى الشغل الشاغل للشعوب ، فإذا قيل فى الإستراتيجية إن الجيوش تزحف على بطونها ، فإننا نستطيع أيضا أن نقول إن الشعوب تفهم أحيانًا بأمعائها . ولا يمكن أبدا أن تتحدث إلى شعب عن الديمقراطية أو المشاركة السياسية إذا لم يكن لدى هذا الشعب المتطلبات الأساسية ، إذ سوف يصبح الحديث فى هذه الحالة لغوا وترفا لا طائل من ورائهما . إنما الحاجات المادية هى أمر لابد من تلبيته . وليس فى هذا أى تناقض أبدا ، لا مع الفكر الإنسانى ولا مع الشرائع السماوية السمحاء ؛ فهذا أمر مسلّم به ، وحاجات الناس أمر يلتزم به الحاكم وأولو الأمر فى كل زمان ومكان . وعلى ذلك ، فقد يأتى التهديد للأمن القومى من طبيعة التناقضات الداخلية فى المجتمع نفسه ، أى يأتيه الشر من داخله . وأعتقد أنّ النماذج على هذا كثيرة من حولنا .

هذا الأمر يوضح لنا البعد الاقتصادى فى تحديد مفهوم الأمن القومى ، الذى لا يستقرّ ولا يستقيم لبلد مُعيَّن ، إلا باختفاء التناقضات الاقتصادية فيه ، والإحساس بقدر من تلبية حاجات الناس تصل بمستوى الدخل الفردى إلى حدّ معقول . فى غير ذلك يمكن أن تتوقع انهيارات كثيرة داخل المجتمع ، تسمح بحالات من الانحطاط فى نواحى الحياة ، وتدفع بالمجتمع فى مسارات غير مرضية

لمستقبله . فالبعد الاقتصادى من الأبعاد التى يجب ألا تغفل عند دراسة أو تحليل طبيعة الأمن القومى لأمة معينة أو لدولة بذاتها .

هناك أيضًا بعد أعطيه كثيرًا من الاهتمام ، وأعنى به البعد الاجتماعى . المتصل بطبيعة السكان والتوزيع الديمغرافى لهم ، والتركيب الطائفى لهؤلاء السكان ، لأنه لا يخفى عليكم أنه ما لم تكن هناك مصالحة عامة بين القوى الاجتماعية فى بلد معيّن ، فإنّ النهاية وشيكة ، والانهيار محتمل فى أى لحظة . ولعل فى النموذج اللبنانى ـ من ١٩٤٣ حيث صدر الميثاق الوطنى فى لبنان ، إلى ١٩٧٥ بداية الحرب الأهلية ـ أوضح مثال لذلك . فالتركيبة الاجتماعية فى لبنان والتكوين الطائفى لم يكونا بطبيعتيهما مستقرين : المسلمون عمومًا يشعرون بأنهم لم ينالوا ما يجب أن ينالوه بحكم التعداد . الشيعة يشعرون بأن عددهم السكانى لا يعبر عنه وزنهم السياسى والاقتصادى فى الدولة ، الموارنة يشعرون بأنهم قد نالوا حقا مكتسبا يجب أن يحافظوا عليه . وقس على ذلك باقى الطوائف فى المجتمع اللبنانى . فكانت النتيجة أكثر من خمسة عشر عاما استمرت فيها الحرب الأهلية قائمة . هذا هو البعد الاجتماعى للأمن القومى ، فلو أن لبنان دخل حربا وهو دولة قائمة وكيانها ثابت ، ما كنا نتوقع له هذه الدرجة من التدهور وتلك المشكلات المعقدة . فإذن البعد الاجتماعى بعد أصيل له أهميته ولا يجب إغفاله على الإطلاق .

ونصل إلى بعد آخر ، وهو البعد الثقافى أو التكنولوجى . وطبعا ليس البعد التكنولوجى مرادفا للثقافى ، إنما كلمة الثقافة فى ذهنى كلمة واسعة تحتوى كثيرًا من العناوين الفرعية . فارتفاع مستوى التعليم فى شعب معيّن ، والنهضة الثقافية فيه هما بالضرورة مقدمة للتفتح على معارف العالم والانفتاح على مداركه وحياة العصر فيه ، بحيث تسمح للشعوب أن تكون أكثر واقعية ، وأكثر قدرة على الاحتكاك بالمجتمعات الأخرى فى العالم من حولها ، وفهم التغيرات الإقليمية والدولية . ومن ذلك مثلاً ، أن يدرك الشعب بثقافته أن من لا يصنع سلاحه ليس مستقلاً . وهذا قد لا يدركه إنسان عادى ، ولكنه لا يفوت على من له إدراك ووعى بالحياة من حوله . فالمستوى الثقافى ، هو الذى يتيح للإنسان العادى أن يدرك أن استقلالية القرار السياسى فى بلد معين ، لن تتحقق بغير القدرة على تصنيع السلاح . ومن هنا يأتى بعد تكنولوجى آخر له أهميته ، وهو الاحتكاك بتكنولوجيا العصر ومعارفه .

النظام الدفاعى السياسى لأمة معينة ، مرتبط بتركيبة معينة فى فترة معينة . . يعنى فى ظل الدولة العثمانية كشكل من أشكال الخلافة الإسلامية برغم كل ما يرد عليها من مثالب ومشكلات وتناقضات ، إلا أنه كانت هناك على الأقل مظلة لشعوب الشرق الأوسط وشمال إفريقية وبعض الأطراف والتخوم المحيطة بالعالمين العربى والإسلامى ، هذه المظلة سقطت بحكم ظروف دولية معروفة . وكان على الدول التى انضوت تحت لواء الخلافة العثمانية أن تبحث عن نظام دولى جديد فاندفعت بالمفهوم القومى بديلا عن الارتباط الدينى . ولا يخفى عليكم أن كثيرًا من الحركات فى العالم

العربى الإسلامى كانت تعبيرًا عن البحث الجديد للبديل للخلافة العثمانية . بل إن الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية مثلا هى تعبير سياسى لمحاولة الاستقلال والخلاص وتأكيد الهوية العربية فى منطقة معينة . وليس الأمر كذلك فحسب ، بل إننى أزعم أن محاولات محمد على الاستقلالية فى مصر ووادى النيل تندرج تحت هذا النمط أيضا ، البحث عن نموذج لنظام سياسى جديد يكون وريثا للخلافة العثمانية .

منذ ذلك الحين ومحاولات العرب قائمة للبحث ، بعد سقوط الخلافة الإسلامية ، عن نظام عربى يكفل لهم الدفاع القومى أو الأمن القومى بشكل مختلف . وقد جرت محاولات فى مصر لوراثة الخلافة العثمانية ، بل ظهرت جمعيات للخلافة فى الهند وباكستان ، تدعو بأن تكون الخلافة فى أكبر أسرة إسلامية حاكمة فى ذلك الوقت وهى الأسرة العلوية فى مصر . وعقد مؤتمر مشهور فى الثلاثينيات فى لندن أيضًا يدعو إلى إحياء الخلافة بشكل جديد ، ويرى أن مقرها الطبيعى بعد التغييرات التى حدثت فى المنطقة ، يمكن أن يكون فى القاهرة .

أردت من هذا أن أؤكد على حقيقة معينة ، وهى أن العرب قد حاولوا فى العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات أن يجدوا هوية قومية تسمح لهم بالاستمرار وتواكب ذلك مع حركات التحرر فى العالم العربى ؛ سوريا والعراق ومصر وباقى أطراف الأمة العربية ، إلى أن حدث ما لا يخفى عليكم . فقد حدث أمر بدأت بوادره منذ نهاية القرن الماضى ، ولكنه ترك بصمات قوية على الأمن القومى العربى ، سوف تظل تلازمه لسنوات طويلة ، وأعنى به الوجود الإسرائيلى فوق الأرض العربية وثورات الفلسطينيين منذ الثلاثينيات ضدهم ، والتعاطف العربى الإسلامى مع الثوار الفلسطينيين حتى قامت دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ ، وواجه الأمن القومى العربى لأول مرة اختبارًا جماعيًا لم يواجهه من قبل . فبغير مظلة إسلامية جامعة ، وبغير لواء الخلافة الإسلامية ، دخلت الجيوش العربية كما تعلمون إلى فلسطين سنة ١٩٤٨ م ، وسبقتها مجموعات من فدائيى ومتطوعى الدول وفى مقدمتهم الإخوان المسلمون من مصر ، وأصبحنا نواجه لأول مرة محاولة عربية لتكريس الأمن القومى العربى بشكل جماعى ، وإن لم يكن مدروسًا ولا منضبطًا ، وكانت النتيجة كما تعلمون أن انتهى الأمر ولكنه خرج بتغيير حقيقى وهو أن الشعوب العربية أصبحت تدرك أن الشكل القائم للنظام الدفاعى العربى لم يعد مقبولاً . ثم كانت الجامعة العربية التى قامت ببروتوكول الإسكندرية حتى وقعت بعض الدول فى سنة ١٩٥٠ على اتفاقية الدفاع العربى المشترك وهى ليست اتفاقية عسكرية بحتة بل هى ذات طابع اقتصادى إستراتيجى يستند إلى أساس قومى .

أما بالنسبة لما يتحدث عنه البعض حول التناقض العربى الإيرانى ، والمخاوف الأمنية المتبادلة خصوصًا فى منطقة الخليج فأنا اعتقد مخلصا أن استقراء التاريخ يوحى بغير ذلك ، وأنه كان يجب أن تكون العلاقات العربية الفارسية قيمة مضافة إلى الوجود العربى الإسلامى ، وليست قيمة مخصومة منه . وعلى ذلك فإن حسن الجوار بين القوميتين معروف تاريخيا ، لقد عرفنا كثيرًا من الفقهاء

والمفكرين والفلاسفة ولا نكاد نميّز من هو من أصل فارسى، ومن هو من أصل عربى ، ونجد أن الدماء امتزجت ، فالمسألة كانت متداخلة ـ ومنذ دخل الإسلام المنطقة وقبلته القوميتان ، أصبح التناقض بدون مبرر مقبول وعلى ذلك فإنى لا أتصوره تناقضا دائما ولكنه تناقض مرحلى ، وينتهى بالعودة إلى مفهوم حسن الجوار والسلامة الإقليمية لدول القوميتين .

البعد العربى لثورة يوليو « تموز » ١٩٥٢ (*)

ونحن نقترب من العام الأربعين على قيام ثورة يوليو « تموز » مازال منا من يشكك فى ثوريتها ويشير إليها على أنها انقلاب عسكرى عارض ، وهذا ليس تجنيا على ثورة قومية فحسب ، ولكنه مغالطة علمية لا تخفى على ذى عينين ، لأنها ثورة فى الخريطة الاجتماعية للمجتمع وفى توزيع الثروات . ويعتبر البعض أن قانون الإصلاح الزراعى هو بداية البعد الاجتماعى للثورة ، وإن كنت ممن يعتقدون أنه كان عملا سياسيًا فى الدرجة الأولى ، لأنه يدخل فى نطاق تغيير طبيعية القوى الوطنية فى المجتمع أكثر منه هدفا لتوزيع الثروة .

نستطيع أن نقول إن ثورة ٢٣ يوليو حدث قومى ، إذ إن مفهوم العروبة قبل ذلك أو البعد العربى لمصر كان مختلطا بأبعاد أخرى ، ويرجع الفضل للثورة التى كانت تدرك أكثر من غيرها التصاعد المنتظر لمخاطر قيام إسرائيل فى المنطقة .

. . . أقول أن هذا الدرس الذى وعاه ثوار يوليو أعطى البعد القومى لمصر قيمته ودوره . . . ولقد اختلط على امتداد العصور السابقة مع ذلك بالفكرة الإسلامية ، وكانت النظرة إلى الدول العربية لا تبرأ من التعاطف الإسلامى بالدرجة الأولى حتى الحركات الوطنية فى العالم العربى، ذات البعد القومى ، كانت حركات دينية فى أغلبها . الحركة الوهابية فى السعودية ، والسنوسية فى ليبيا والمهدية فى السودان ، كلها حركات تحررية ، لكنها ذات مضمون إسلامى ، ولكن ، بعد ٢٣ يوليو استطاع ثوار مصر أن ينطلقوا من مرحلة البعد الإسلامى لمفهوم العروبة إلى بعد أوسع وأرحب وهو البعد العربى القومى الخالص .

إن ما حدث فى العلاقات المصرية السودانية فى بداية الخمسينيات كان دافعا لتوجه أعم وأشمل للحديث عن مفهوم شامل للوحدة العربية ، حيث ضاع الحديث عن وحدة وادى النيل فى إطار نزعة وطنية تعبر عن شعور وطنى سودانى مستقل . كما أن المواجهة الساخنة والعنيفة بين عبد الناصر والإخوان المسلمين عام ١٩٥٤ . كانت مبررًا له لأن يكون التوجه العربى القومى أكبر وأقوى من أى

(*) من حديث للمؤلف أمام ندوة « مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر » ٤ مارس (آذار) ١٩٩٠ .

توجه دينى قد يحسب عليه فى ظل الظروف الداخلية ، إذن لا يجب أن ينصرف توجه مصر العربى فى بداية الخمسينيات لكى يكون مجردًا عن أحداث كانت قائمة ، أولها حرب فلسطين ، وثانيها ما حدث مع السودان ، وثالثها ذلك الصراع العنيف مع الإخوان المسلمين .

ثورة يوليو « تموز » .. المنظور القومى العربى وتداعيـات التسعينيـات (*)

إذا أردنا الحديث عن ثورة يوليو من المنظور القومى ، فإن ذلك يقودنا بالضرورة إلى موضوع يرتبط بها بالدرجة الأولى ، وهو مناقشة ما درج الكتاب على تسميته بقضية عروبة مصر ، وكأن قضية العروبة بالنسبة لمصر ما زالت طرحا يحتاج لمناقشة ، وأمرا يستحق الجدل . وأحيانًا تأتى القضية فى إطار أكبر وبشكل مغلف ، تحت تسمية أكثر اتساعا ، وهى « مصر قضية الهوية والانتماء » إذ يتساءل البعض هل مصر عربية أم إسلامية أم إفريقية أم حتى دولة بحر متوسطية أم أنها دولة لها خصوصية التكوين بحكم تاريخها الفرعونى ؟ والجدل فى ذلك متسع ، ولكنه يقود فى النهاية إلى تلك التعددية فى الهوية التى تتميز بها مصر عن أقطار المنطقة ، والتى تجعل منها « حضارة ملتقى » ولكن يهمنى أن أقول هنا إن التاريخ السياسى والاجتماعى لمصر عرف فى مراحله المختلفة عدة تيارات ، منها التيار الإسلامى ، والتيار القومى والتيار الوطنى المصرى الذى تقدم به بالدرجة الأولى مصريون من مثقفى الغرب ، والذين شعروا بأن الهوية المصرية تتميز عن المنطقة بشكل مختلف مما يعطيها نوعا من الخصوصية يجعل لها ذلك الطابع الفريد الذى تتميز به .

ولكن ، ولكى أقترب من موضوع الندوة ، فلابد من القول إن مصر عربية الثقافة ، وإن بناءها الحضارى منذ الفتح الإسلامى يأخذ ذلك الطابع . وفى العصر الفاطمى بدأ أقباط مصر يؤدون صلوات الكنائس باللغة العربية . كان ذلك يعنى القبول الكامل بعروبة مصر على نحو عرفه هذا البلد منذ ذلك الوقت . فإذا كان هذا تسليما ثقافيا حضاريا فإنه لا ينتقص أيضا من امتزاج باقى الحضارات التى وفدت على المنطقة ، وفى مقدمتها الحضارة الفرعونية والوجود الرومانى والإغريقى وغيره من الثقافات الوافدة على هذه الأرض ، والتى امتزجت وتم استيعابها بشكل منصهر فى النهاية ليعطى تلك الشخصية الفريدة لهذا البلد المتميز .

إن الذى يعنينـى من كل هذه المقدمة التـاريخية هو أن أقول إنه يرجـع الفضل لثورة عبد الناصر

(*) ندوة هيئة الاستعلامات ـ القاهرة ٢٦ يوليو (تموز) ١٩٩٠ .

فى ٢٣ يوليو لإعطاء هذه الهوية العربية فى مصر ذلك البعد السياسى الذى تميزت به وارتبطت بوجوده .

إن فترة الأحلام الواسعة والعواطف الجياشة والرؤى البعيدة المدى لسنوات الخمسينيات والستينيات ، قد ضربت بانتكاسة ١٩٦٧ . إن عبد الناصر الذى رحل من هذا العالم سنة ١٩٧٠ قد رحل ـ رغم صموده المشهود فى السنوات الثلاث السابقة لوفاته ـ رحل والأرض محتلة والأمة شتات والأمر فى أسوأ أوضاعه . ولكن ليس بنهاية القيادات نقيم تاريخها . . إن نابليون قد انتهى سجينا مهزومًا كما أن محمد على انتهى أيضًا محاصرا باتفاقية ١٨٤٠ ، محجمة أوضاعه فى حكم مصر له ولأولاده من بعده . إن ما نشعر به اليوم من تقدير لمصر ودورها إنما هو حصاد لتلك السنوات نشهده على الساحة العربية ، ونشهده على الساحة الإفريقية ، وكثيرًا ما نشهده على الساحة الدولية أيضًا .

أما اليوم فنحن بمواجهة دور مصرى جديد فى العالم العربى ، يتخلى عن بريق العواطف والأحلام والرؤى والأمانى ، ويتجه بواقعية وموضوعية إلى التعامل غير المباشر مع القوى العربية المختلفة .

إذ إننا فى مصر نتطلع إلى عالم عربى جديد تأخذ مصر فيه دورها . فما أصعب التوازن بين التزامات مصر وما فرضته عليها الظروف ، وبين انتماءات مصر وما حكمها به التاريخ . لذلك فإن مصر فى علاقاتها العربية تدرك بوعى كامل أن انتماءها القومى ليس قضية جدلية أو سياسة مرحلية بل هو ركيزة الانتماء والهوية .

أمن الوطن .. و .. أمن الأمة (*)

لقد تغير المفهوم التقليدى لأمن الدولة ، والذى كان مرتبطا بحماية الحدود فى العصور الوسطى ليصبح محكوما بعاملى الجغرافيا (أى المكان) وهو محور الموقع ، والتاريخ (أى الزمان) وهو محور الحدث . ومن هنا ، فإن الأمن ليس حماية حدود الدولة وضمان سلامة أراضيها فقط ، وإنما يدخل فى طبيعة الاستقرار السياسى ، محكوما بأبعاد سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية واجتماعية لها تأثيرها . وعلى ذلك ، أصبحت قضية الأمن القومى متشابكة، تتطلب مجموعة من العوامل التى يجب أن تتوفر لمجتمع معين ، لتحقق له السلامة النفسية والاستقرار الكامل . والاستقرار أمر يختلف عن السكون ، فقد يكون الوضع ساكنا ، بينما الأمن القومى فى أشد مراحل تعرضه للمخاطر من الداخل أو الخارج . . . ثم إننا أصبحنا فى عالم لم تعد فيه الدول جزرًا منعزلة ، ولكن هناك تداخلا بسبب ثورة المعلومات والمعرفة وحركة الرأى العام . . فأصبح التأثير والتأثر متبادلين بين كل الدول مما يجعل الأمن القومى مترابطا . ولعل نموذج الغزو العراقى للكويت يوضح كيف اهتز الإقليم كله وتأثر العالم بما حدث .

أما عن الارتباط بين الأمن الوطنى المصرى والأمن القومى العربى . . . فإنه لا يمكن الفصل بينهما ، بل إن قدر مصر قد جعل منها دولة محورية ، لا تقف عند حدودها أبدا ، بل تكون أول من يتأثر بما يجرى حولها ، باعتبار أن مسئوليتها القومية والدولية أكبر من غيرها . وأول من يؤثر فيه بثقلها السياسى والعسكرى والسكانى ، بمثابة « العامل المستقل » الذى تتبعه عوامل أخرى .

الأمر المؤكد ، أنه لا يمكن الفصل بين الأمن الوطنى المصرى والأمن القومى العربى؛ فالخطر عندما يأتى ، لا تستطيع أن تضع حاجزًا فتقول : هنا ينتهى هذا ويبدأ ذاك . وهناك عدد من العوامل المؤثرة فى الأمن القومى العربى ، والتى تتأثر بها مصر بالضرورة . . ومنها :

١ ـ أن الأمة العربية بموقعها الإستراتيجى وطبيعتها وما تحتويه من ممرات مائية . . تعطى لها جاذبية خاصة تتنازعها القوى الأخرى .

(*) من حديث لى فى ندوة صحيفة الأهرام منشورة فى ١٣ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٩٠ .

٢ ـ عامل الثروة النفطية وتداعياتها السياسية والاجتماعية ، فلقد أحدث النفط انقلابًا جذريًا فى شكل المجتمع العربى ، وفى علاقات الأقطار العربية بعضها ببعض ، وفى تقييم العالم للمنطقة .

٣ ـ عامل المد القومى المنحسر حاليًا والتمزق العربى . . فنحن نعانى من أزمة حقيقية على امتداد العشرين سنة الأخيرة . . ولا أريد أن أوقتها بأحداث محددة ، أو باختفاء زعامات معينة ، وإنما نستطيع القول بأن الشارع العربى قد أصيب بحالة من الإحباط والركود .

٤ ـ عامل التيار الإسلامى المتنامى فى الأقطار العربية ، وبغض النظر عن تقييمنا له ، فهو موجود وسوف يمارس تأثيره على مستقبل المنطقة لسنوات قادمة ، ولم تتحدد حتى الآن نظرة قومية موحدة تجاهه .

٥ ـ عامل تقادم التنظيم الإقليمى العربى ، ممثلا فى الجامعة العربية . فالجامعة مؤسسة إقليمية دولية ، لعبت دورًا بارزًا فى تاريخ المنطقة ، ولكن جاء الوقت لمراجعة شكل هذه المؤسسة ، على ضوء المتغيرات الدولية والتطورات العالمية .

٦ ـ عامل ، لا يريد الكثيرون أن يركزوا عليه لحساسيته ، وهو عامل غياب الديمقراطية ، وضعف المشاركة السياسية فى الأنظمة العربية . .

٧ ـ عامل نقص الوعى بالمتغيرات الدولية ، والابتعاد فى كثير من الأحيان عن الواقعية السياسية بحيث نبدو وكأننا لا نعيش حياة العصر .

والآن . . لنا أن نتساءل : كيف نستطيع أن نوائم بين الأمن الوطنى المصرى ، والأمن القومى العربى فى ظل هذه المتغيرات ؟

إن هذا يقتضى تكامل مقومات الأمن القومى بعوامل ، منها ضرورة اختفاء النزعة الشعوبية واحتواء الإحساس الذاتى لبعض الأقطار العربية ، ويتطلب الأمن القومى العربى أيضًا شيوع الروح الديمقراطية فى الأقطار العربية ، لضمان درجة من النضوج السياسى المتقارب ؛ فإنه حين تختفى حرية التعبير ، لا توجد ذات قطرية تعبر عن نفسها أو تلتحم بالآخرين ، وأضيف أنه لو كانت هناك ديمقراطية بالمعنى الصحيح فى العالم العربى ، لما واجهنا ما واجهناه من انتكاسات ونكبات . كذلك فإن ضرورة الاعتماد على القوة الذاتية العربية هى ضمان تحقيق الأمن القومى ، أخذًا فى الاعتبار أن مفهوم الأمة الواحدة يعنى أمة واحدة فى السراء والضراء . .

أما عن دور مصر ، وبلا حساسية أو اتهام « بالشيفونية » ، فهو أساسى فى مسئولية الأمن القومى العربى ، وقد أثبتت التجربة أنه ليست لها أطماع إقليمية أو توسعية ، وما دخلت أرضا فى تاريخها إلا وانسحبت منها ، والتاريخ يشهد بهذا ، والدول المجاورة تشهد به أيضًا .

إن الأمن القومى العربى الآن يواجه ـ بلا شك ـ اختبارًا غير مسبوق فى تاريخه الحديث ، وخطرًا حقيقيًا يحتاج من هذه الأمة إلى استجماع كل تراثها الحضارى ورصيدها القومى ، لاحتواء ذلك الموقف الذى قد يعود بالمنطقة عشرات السنين إلى الوراء . ومصر ، بحكم التاريخ والجغرافيا ، تبدو مسئوليتها بقدر حجمها وموقعها وتأثيرها الثقافى على امتداد الساحة العربية ؛ وكما كان دورها محوريا للخروج من كل أزمات المنطقة ، فإن دورها اليوم لابد أن يكون متناسبا مع مواقفها القومية السابقة .

فالأمر ، فى تصورى ، يحتاج إلى تفكير قومى خالص ، لتوفير أسباب الحماية والتأمين للأقطار العربية ـ خصوصا الأصغر حجما والأكثر ثروة ـ فى ظل نظام أمنى دفاعى مقبول ، قد تكون مصر مرشحة للقيام بدور فيه ، ولكن ذلك لن يتحقق بغير سقوط حساسيات كثيرة ، وذوبان أوهام متعددة ، واختفاء مخاوف هى تراكمات لسنوات التبعية والتخلف .

أخيرًا ، فإننى أقول : لابد من فكر قومى مخلص ، يضع حسابات المصلحة العربية العليا واستقرار شعوبها فى المقدمة دائما ، حتى لا نكرر فى المستقبل سقطات الماضى وخطاياه ، وكأننا أمة فقدت الذاكرة أو غاب عنها الوعى ! .

تصورات حول المستقبل العربى (*)

لقد سعدت كثيرًا ، حين تلقيت دعوة جمعية خريجى الجامعات البريطانية فى مصر ، لأسباب عدة ، يقع فى مقدمتها شعورى بأن الانتماء إلى هذه الجمعية يعنى بالتبعية الانتماء إلى فترة هامة من فترات العمر، وهى فترة الدراسة فى المملكة المتحدة، سواء فى العاصمة البريطانية أو خارجها، وهذا يعطى شعورا بالألفة والاقتراب مع من نتحدث إليهم . وثانيها، هو أننى أريد أن يكون حديثنا حديث العقل ، لأن أى محاولة لطرق أبواب المستقبل العربى سوف تكون محفوفة بالضرورة بقدر كبير من التنبؤ والقياس . وكل محاولات التنبؤ والقياس على المستوى العربى ، خصوصا فى الظروف الراهنة ، تبدو صعبة للغاية . فلا يخفى عليكم أن المستقبل العربى حديث يعبر عن شجون الساعة وهموم المرحلة . كلنا نتطلع ونتساءل :

ياترى كيف سيكون مستقبل هذه البقعة من العالم ، فى ظل هذه الهزات العنيفة ، والأحداث الضخمة التى تعرضت لها أخيرًا ؟ والواقع ، أنه مما يزيد من صعوبة أى تصور للمستقبل فى العالم العربى ، أن التاريخ العربى فى حد ذاته ملىء بشحنات العاطفة والتهويل السياسى . فالقيام بعملية تجريد لهذا التاريخ من كل هذه الشحنات العاطفية ، سوف يزيد الأمر صعوبة ، لأنه يضعنا أمام محاولة وضع الأمور فى إطارها الحقيقى ، وبالتالى يجعل عملية التنبؤ غير سهلة ، خصوصا وأنه لا يخفى علينا أن الحاضر العربى يحفل أيضا بكثير من التداخلات والتناقضات .

والذى يعنينى أولا ، هو أن أستعرض وبإيجاز دور مصر العربى تاريخيا ، فى عجالة سريعة لكى نخرج منها بالرد على سؤال أساسى : هل دور مصر العربى ضرورة أم اختيار؟ يعنى هل كتب علينا ، بحكم التاريخ والجغرافيا ، أن نكون دولة محورية ، بل قاعدية فى هذه المنطقة من العالم ؟ أم أن هذا الدور دور اختيارى ، يمكن أن تقدم عليه مصر إن أرادت أو تعزف عنه إن شاءت ؟

يجب أن نؤكد بداية أن مصر كانت لها مكانتها المرموقة فى المنطقة بشكل يسبق عروبة مصر أيضًا بل ولا أتجاوز القول إذا قلت بشكل يسبق دخول الإسلام إلى مصر . فمصر بلد يتميز عبر التاريخ

(*) من محاضرة للمؤلف أمام جمعية خريجى الجامعات البريطانية بالقاهرة ٢٣ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٠ .

بحكم وجود هذا الكم الهائل من حضارة الإنسان لفترة هامة من بداية التاريخ المكتوب . ولا يخفى عليكم أن جدلا كان يثور ، على عهد النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده ، حول فتح مصر ، وكان هناك نوع من التردد تجاه الإقدام على هذا العمل ، لأسباب تتصل بمكانة مصر ووزنها فى تلك الفترة من التاريخ . ولم يستطع إلا عمرو بن العاص ـ بما عرف عنه من كياسة وحكمة ـ أن يقنع الخليفة الثانى عمر بن الخطاب بأن يقدم على الفتح محملا بوصاياه ونصائحه.

لقد شهدت المنطقة العربية ، على امتداد سنواتها الطويلة ، مواجهات مختلفة إذ ظهرت الانقسامات بين أنظمة تقليدية وأنظمة أخرى تنهج نهجا اشتراكيا أو تقدميا ومعظمها أنظمة جمهورية . ولكن كان هناك دائما تيار عربى عام ، يسمح لنا بأن نتحدث عن تيار قومى واحد ، إلى أن كان حادث الثانى من أغسطس (آب) ١٩٩٠ ، والذى حمل ولأول مرة انقساما حقيقيًا فى الشارع العربى . والسبب فى ذلك ، أن تداخلا قد حدث بين ثلاث أطروحات مختلفة : البعد الأول فيها ، هو غزو دولة لدولة عربية جارة ، وضمها بالقوة . والأمر الثانى ، هو دعوة دولة أو دول فى المنطقة لقوى أجنبية لحمايتها من خطر محتمل من الدولة الغازية . والأمر الثالث ـ وله بريق شديد هو الذى أعطى العراق الأرضية فى الشارع العربى ـ وأعنى به موضوع العدل الاجتماعى العربى ، وهو موضوع له جاذبية فى كل مكان وزمان ، إذ الحديث عن أمة عربية واحدة تشارك فى السراء والضراء بكل ثرائها وفقرها ، بكل تضحياتها وامتيازاتها يجعل التلويح بهذا الموضوع أمرا ذا بريق لفقراء العالم العربى . شعوب عربية يلفت نظرها مثل هذا النداء ، وتعتقد أن الأمة العربية الواحدة يجب أن تشارك فى هذه الثروة بشكل واحد ، وكأننا أمام نموذج (أدهم الشرقاوى) فى التاريخ الشعبى «الفلكلور المصرى » الذى كان يقتل من أجل أن يعطى الفقراء من الأغنياء ، وينتقم للمقهورين من الأسياد .

إن الذى يعنينى الآن هو أن نتحدث معا ، فى هذا الجمع من صفوة المثقفين ، ونتساءل بصوت عال . . ما هو تصورنا لسياسة مصر المستقبلية ، تجاه هذا العالم العربى ، الذى يموج بالاضطراب والذى تنذر أيامه القادمة بكثير من التوتر والقلق والمعاناة ؟

لقد جاء الوقت لكى نبحث عن صيغة لتعامل مصر مع العالم العربى ، نعترف فيها بالحقائق كما هى ، ونعطى فيها المصلحة بشكل وطنى محدد إطارها الذى يجب أن تستمر فيه . . لا يمكن أن تكون مصر ، كما كانت لفترات طويلة ، هى المتحملة للتضحيات ، الناكرة للذات ، المبتعدة عن المكاسب والمغانم ، فى مواجهة موجات من الجحود والنكران تهب إلى سطح العالم العربى بين الحين والحين . . وليس فى هذا انتقاص لمفهوم القومية العربية ، أو تجريد لمصر من ردائها العربى .

يجب أن تتبلور سياستنا العربية فى صيغة جديدة للتعامل مع الكيانات العربية المختلفة ، وفقا لخطوط عريضة يجب أن يتعارف عليها الجميع ، فما هو الوضع بالنسبة لدول المنطقة المختلفة هل سوف تمارس الديموقراطية فى العالم العربى دورها المنتظر الذى يجنب العرب الكوارث والنكبات ويدخل بهم من بوابة العصر الذى نعيش فيه ؟ أم أن غيبة الوعى واضاعة الفرص والانفصال عن الواقع سوف تظل كلها خصائص نعانى منها وسمات ترتبط بنا ؟

أزمة الخليج
ومستقبل المشروع القومى (*)

بعد أن سكتت المدافع ، وتوقفت الطائرات عن القصف وهدأت المنطقة ، أو هكذا يبدو لنا أنها قد هدأت ، تبدو الرؤية أكثر وضوحا عن ذى قبل . فلا يخفى علينا ، أن العالم العربى مازال يعيش فى حالة ذهول حقيقية ، ولم يفق بعد من صدمة كبرى . فلم يعرف التاريخ العربى فتنة كتلك التى عاشها فى الشهور الماضية ، بل يذهب المؤرخون ، العارفون بالتاريخين العربى والإسلامى ، إلى القول بأن العرب لم يختلفوا فى تاريخهم إلا مرتين : المرة الأولى ، حين كانت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان ، والصراع بين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومعاوية مؤسس الدولة الأموية ، حتى عرفت صراعا لا يقل فى ضراوته عن الصراع الأول وهو غزو العراق واحتلالها للكويت ، وهو الذى مزق أوصال الأمة وأصابها فى مقتل ، بل إننى لا أتجاوز الحقيقة إذا قلت إنه ، بغض النظر عن حسابات المكسب والخسارة لكل طرف ، فإن ما حدث هو فى إيجاز صدمة كبرى للوجدان القومى بل أكثر من ذلك هو هزيمة تاريخية للعقل العربى الذى يواجه ، على مشارف القرن الحادى والعشرين ، أخطر المحن التى واجهها عبر العصور . .

لقد كان لدينا دائما مشروع قومى مطروح على الساحة العربية ، ولكن ما حدث الآن بعد الثانى من أغسطس (آب) يعتبر أكبر ضربة قاصمة لذلك المشروع القومى ، ولسنا نجافى الحقيقة لو قلنا أن مستقبل التضامن العربى رهن بقدرتنا على تجاوز تلك المأساة القومية والارتفاع فوقها بكل ما لدى هذه الأمة من رصيد مشترك ومصلحة عليا واحدة وتحديات تستهدف العرب ـ كل العرب ـ وتحاول اغتيال مستقبلهم كما نالت من ماضيهم وحاضرهم .

(*) من لقاء للمؤلف بأساتذة وطلاب جامعة عين شمس ـ القاهرة ١٦ مارس (آذار) ١٩٩١ .

نحو صياغة جديدة لمستقبل الأمة العربية (*)

إن موضوع الأمن القومى العربى ، من الموضوعات التى جددت أزمة الخليج طرحها ، فأصبح الكل يتحدث عن تدابير الأمن و إجراءات الدفاع المشترك والواقع أن ما يقع على الأرض يحدد مسار الأحداث ، ولقد كنا فى مواجهة عاصفة لعبت فيها قوى دولية دورًا أساسيًا ، وانتهت لصالحها ـ على الأقل حتى الآن ـ فمن الطبيعى أن يكون لها اليد العليا فى إقرار شكل الأمن المحتمل ، وهذا ما يحدث ، ويبدو أننا طرف محدود ـ حتى الآن على الأقل ـ ولا نمثل أبدا المتغير المستقل فى إقرار هذه الأحداث أو تشكيلها .

إن الأمن العربى تم اختزاله حتى يصبح مجرد حماية لبعض الأنظمة فى ظل الظروف الراهنة حيث الخطر العراقى وأبعاده فى المستقبل غير مرئية . ولكن هناك تخوفًا من استبدال خطر بخطر . ومن هنا فموضوع تدابير الأمن معقد ، كما أن الرواية لم تتم فصولها بعد . .

أتصور أنه ستحدث مستقبلاً سلسلة من الانفجارات والتغييرات ولذلك فالعرب فى حاجة إلى نهضة عربية تشمل كل مرافق الحياة ، من خلال مجموعة إجراءات نواجه بها القرن الحادى والعشرين . .

. . إذ أنه على الرغم من تزايد مساحة الحريات السياسية ، فإنه توجد أزمة فكر حقيقية ، وإذا استمر هذا الأمر فسنجد بعد سنوات أن هناك مربعات محرمة تحد من الحركة ، ففى مناخ الستينيات فى مصر كان هناك غياب للديموقراطية ، لكن كانت هناك حرية ثقافية واجتماعية ، وانفتاح ثقافى أكثر بكثير مما نشهده حاليًا . فالعالم العربى الآن مشدود إلى مرحلة من القهر الفكرى ، تؤدى إلى حالة من الاختناق ، يشعر بها من يتحدث فى موضوع معين .

وفى محاولة لتقييم الموقف العربى العام ، أجد عندى ثلاث ملاحظات :

الأولى : إننى أعتقد أننا نمر بظروف غير طبيعية ، وهى استثنائية ، لا يجب معها اتخاذ قرارات جذرية لها تأثير على المستقبل العربى .

(*) من حديث للمؤلف فى ندوة صحيفة الأهرام المنشورة فى ١٤ يونيو (حزيران) ١٩٩١ .

الثانية : أن التيار الإسلامى بكل فصائله وحركاته ، واجه اختبارًا حقيقيًا من خلال تباين مواقف أطرافه من أزمة الخليج .

الثالثة : أن أى حديث عن المستقبل العربى ، يجب أن يكون مرتبطا بوحدة فكر تجاه القوى المختلفة فى العالم والتسويات والأفكار المختلفة . ونحن لم نصل حتى الآن إلى ميثاق فكرى موحد يسمح بوجـود أرضية مشتركة ، تجعلنا نؤيد التحركات الغربية ، أو نوافق على التسويات الأمريكية أو نتخذ موقفا معينا من القضية الفلسطينية . إنه يوجد تباين حقيقى، بينما اقتحام المستقبل يتطلب أرضية فكرية مشتركة صلبة ، ندق عليها بأقدام ثابتة قوية . .

حتى لا تنشب حرب عربية
عربية أخرى (*)

إن هذه المحاضرة فى مضمونها ، هى محاولة للتقييم الموضوعى لحرب الخليج . فتوقيت المحاضرة يأتى بعد عام على العمليات العسكرية ، وعام ونصف منذ دخل تعبير أزمة الخليج فى قاموس العمل السياسى فى عالمنا المعاصر ، فى أثناء الأحداث كان عنصر المعاصرة المباشرة ، يحرم المحلل من أن يدرك كثيراً من الأبعاد ، ويبدو ذلك متاحا بعد فترة من الوقت ، شأن اللوحة الفنية بالابتعاد عنها ترى منها ما لا يكون متاحا بالقرب من خطوطها . . .

إن التقليب فى أوراق أزمة الخليج ، يطرح نقاطا عشرا ، نضعها بغير ترتيب للتأمل باعتبارها نتاجا بدأنا نستوعبه لذلك الحدث الدرامى الضخم فى الحياة العربية . وهذه النقاط العشر هى :

الأولى : خروج النظام العربى من الدائرة العربية البحتة ، ليكون نظاما إقليميا بلا مضمون قومى فأصبح جزءا من نظام دولى كلى . وتأمل هذه النتيجة ، لا يحتاج إلى مجهود كبير ؛ فمن نتائج هذه الحرب المأساوية بكل أبعادها ، أننا قد أصبحنا أمام واقع محدد ، وهو أن ما درجنا على تسميته بنظام عربى ، على امتداد الفترة منذ قيام جامعة الدول العربية حتى الآن ، لم يعد له من حيث المضمون وجود ، صحيح أن الجامعة العربية قائمة ، والمواثيق موجودة ، والأفكار مطروحة ؛ ولكن هناك أزمة ثقة حقيقية بين الأطراف العربية ، جعلت الحديث عن نظام إقليمى أقرب إلى الواقع العملى من الحديث عن نظام عربى .

الثانية : ثبات عجز الحلول العربية ، وبروز تداخل المصالح بين عربية وأجنبية . فمن العبث أن نتحدث الآن عن مصلحة عربية واحدة . قد يكون هذا من الناحية النظرية مقبولا، ولكن من الناحية العملية ، حدث تداخل حقيقى بين مصالح الكيانات السياسية فى المنطقة العربية ، وقوى كبرى أخرى ، على نحو يجعل الحديث عن مصلحة عربية واحدة أمرا نظريا بحتا . يكفى أن نتأمل

(*) ملاحظات ختامية للمؤلف أمام ندوة مركز الدراسات السياسية بجامعة القاهرة ـ ١٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩١

أفكار الإخوة فى الخليج الآن ، وتصوراتهم لقضايا الأمن والسلام والمستقبل ، حتى ندرك إلى أى مدى تطورت النظرة خلال فترة العام ونصف العام الماضية . . .

الثالثة : تزايد الدور غير العربى فى الدائرة الإسلامية ، وأقصد بالدائرة الإسلامية الدائرة المحيطة بالدائرة العربية ، وأسمى منها إيران وتركيا . فمن الواضح ، أنه لم يعد هناك صوت عربى واحد الأمر الذى أصبح من نتائجه أن الدول الإسلامية غير العربية المحيطة بنا ، قد أصبحت تشعر نتيجة هذا الغياب الذى حدث ، بأنه فى مقدورها أن تقوم بدور لم يكن متاحا لها منذ عام ونصف فدخلت قضايا متعددة ، منها مسائل الأمن والدفاع بالنسبة للخليج ، وتتحدث فيها إيران . . مشكلات المياه وتوزيع شكل الأقليات فى المنطقة الواقعة بين العراق وسوريا وتتداولها تركيا . لقد حدث تزايد للدور غير العربى فى الدائرة الإسلامية الضيقة .

الرابعة : وهى قضية خطيرة ، إذ إن حرب الخليج قد دفعت القضية الفلسطينية دفعا كميا وأضعفتها كيفيا . والذى حدث أن نتائج حرب الخليج قد جعلت القضية تطفو على السطح لاعتبارات لا تخفى على فطنة المحللين ، أو الدارسين لظروف المنطقة . فلقد أصبح لزاما على القوى المسئولة عن إدارة الصراع فى هذه المنطقة من العالم ، أن تقوم بعمل من شأنه أن يمتص قدرًا كبيرًا من مرارة ما حدث ، وأن يجعل للظروف المتاحة مكانا مناسبا يسمح بدفع القضية الفلسطينية إلى الأمام ولكنه دفع كمى وليس دفعًا نوعيا أو كيفيا . . . إذ يكفى أن نتأمل المفاوض العربى فى أى وقت وهو يقف وخلفه أمة ممزقة ، تختلف الآراء فيها مائة وثمانين درجة ، وتصل حدة الصراع بين أطرافها بدرجة أكبر من حدة الصراع بين هذه الأطراف والخصم الذى جاء للتفاوض معه .

الخامسة : لقد أثبتت حرب الخليج ، ومن خلال التقليب فى أوراق تلك الحرب بقراءة جديدة بعد فترة من الوقت ، انقسام التيار الإسلامى تجاه أحداث حرب الخليج ، بين مؤيد للعراق ومعارض له ، وبين أولئك الذين أخذوا حلا وسطا أدانوا فيه غزو العراق للكويت وأدانوا أيضا التدخل الأجنبى لحماية الكويت . وتبين هذه المواقف الثلاثة للتيار الإسلامى ، الذى انقسم بين مؤيد ومعارض ووسط ، أن مواقفه قد أدت إلى اهتزاز صورته مرحليا من الناحية السياسية ، كما أن انقسامه فى أول اختبار تجاه قضية قومية ذات طابع إسلامى ، أثبت أنه لا توجد لديه وحدة فكرية حتى الآن .

السادسة : ليست فقط بروز الانقسامات العربية ـ العربية . . . ولكن أيضا بروز الانقسامات الخليجية ـ الخليجية ، والمتخصصون فى سياسات الخليج ، يدركون أن العلاقات الثنائية بين دول الخليج أصبحت الآن فى وضع لم تكن عليه من قبل ، كما لا توجد لديها نظرة واحدة تجاه قضايا الأمن والدفاع عن الخليج ذاته . .

السابعة : من النتائج الحادة لحرب الخليج ، أنها طرحت ، ولأول مرة وبشكل حاد ، مفهوم

توزيع الثروة العربية . . . قد يكون هناك قفز على هذا الموضوع فى كل ما كتب أو يناقش ، إنما تبقى للقضية منذ بدايات أزمة الخليج أنها قد اندفعت لكى تطفو على سطح الذهن العربى بشكل محدد وكشفت ، ولأول مرة ، أن فكرة الأمة الواحدة لابد أن يدخل فيها عنصر المشاركة فى مختلف الظروف . وعلى الرغم من أن هناك محاولات للتستر على هذا الطرح بالذات ، إلا أنه قد طرح . وإذا طرح موضوع على الساحة ، فمن العسير أن يسقط من الذاكرة القومية .

الثامنة : وهى من أخطر القضايا وأكثرها تأثيرًا فى مستقبل الأمة العربية على الإطلاق ، إذا أتيح لها أن تجمع الشمل ، وأن تبقى أمة بمعنى الأمة وبمفاهيمها السياسية والدستورية . وأعنى بها أزمة الديموقراطية فى الوطن العربى وغياب المشاركة السياسية وهما تمثلان بحق أزمة النظم العربية .

التاسعة : خريطة جديدة لتوزيع القوى فى المنطقة العربية ، لقد اتخذت مصر موقفا مختلفا منذ نهاية السبعينيات ، ولسنا بصدد تقييمه من الناحيتين السياسية والإستراتيجية ، إنما برغم قيادة مصر للعمل العربى سياسيا وثقافيا وحضاريا ، إنما يصبح لدورها طابع خاص يرتبط بتعهدات معينة فى نهاية السبعينيات . أضف إليه أن من نتائج حرب الخليج أن اختفت أكبر قوة عسكرية محتملة والتى كانت ممثلة فى الترسانة العسكرية الكبيرة للعراق . فالجزائر فى أزمة داخلية تحرمها من المشاركة الحقيقية فى توجيه الأحداث السياسية فى هذه المنطقة ، وأصبح لسوريا دور خاص تأثر بشكل كبير بالتغيرات الدولية الناجمة عن اختفاء الاتحاد السوفييتى من الساحة السياسية ، أضف إلى ذلك المواجهة بين الغرب وليبيا حاليًا ، إذن توزيع القوى فى العالم العربى توزيع مخيف ، ولا يبشر على الإطلاق بإمكانية التأثير فى السياسات الإقليمية ، ما لم تتغير طريقة تفكيرنا وأسلوب حياتنا وإلا لن نكون قوة فعالة مؤثرة ، بل سوف نكون قوة متأثرة . .

العاشرة والأخيرة : لقد نسينا فى زحمة الأحداث وكثرة الحديث عن الغزو والشرعية ، وقضايا الأمن والنظام الجديد ، أن هناك واقعا عربيا أليما سوف نواجهه بعد سنوات قليلة . فالمرارة التى تترسب يوما بعد يوم فى أعماق جماهير الشعب العراقى ، سوف تترك بصماتها على المستقبل العربى كله . .

« الثقافة العربية فى عالم متغير » (*)

يمثل مؤتمر يدور حول مستقبل الثقافة العربية فى عالم متغير أهمية خاصة ، فى وقت نرصد فيه الظواهر الجديدة ، والمتغيرات المتلاحقة على نحو ينبئ بدخولنا عصرا مختلفا يسمح بالحديث عن عالم متغير . . سقطت فيه نظم ، واختفت منه كيانات ، وتغيرت خريطة العالم، وبرز الاتجاه نحو التعددية السياسية ، وتعزيز مناخ الحريات ، ودخول قضايا جديدة على جدول أعمال السياسة الدولية ، نذكر منها على سبيل المثال : قضايا حقوق الإنسان ، ومشكلات البيئة وأوضاع اللاجئين فى بؤر النزاع المختلفة ، إلى جانب عدد من التساؤلات حول مستقبل حركة عدم الانحياز ، والعلاقة بين أغنياء العالم وفقرائه ، والآثار المختلفة للثورة العلمية على مستقبل السياسة . .

ولتسمحوا لى بأن أضع أمامكم بعض القضايا المتصلة بموضوع الندوة لعلها تسهم فى فتح آفاق البحث حوله :

أولا : إن الثقافة هى بناء حضارى إنسانى يقوم على نظام متميز ونسق خاص للقيم الاجتماعية والمفاهيم الفكرية ، ولذلك فالثقافة تستند إلى خلفية ذاتية تعكس عمقا حضاريا وحسا إنسانيا يلتصقان بها فى كل زمان ومكان .

ثانيا : إن التحولات الضخمة التى شهدها العالم فى السنوات الأخيرة ، والتى سقطت بها معظم نتائج الحرب العالمية الثانية ، قد انعكست بالتالى على القوميات والأيديولوجيات فى وقت واحد ، بما ترك آثاره على الأمم والشعوب ، حتى تلك التى لا تمسها التحولات بشكل مباشر .

ثالثا : إن الثقافة تعبير حى نابض يعكس روح الأمة وتقاليدها الفكرية وأعرافها السياسية، ومع ذلك فهى جزء من تيار عالمى يسعى لشيوع المعرفة واتساع حيز التنوير ، لذلك يثور التساؤل دائما عن دورها المتأرجح بين القومية والعالمية ،أى هل نريد للثقافة أن تعكس ذاتية الأمة على نحو يصل بها إلى حد التعصب ويعزلها عن تيارات العصر فى انغلاق مقيت ؟ أم تذوب الثقافة القومية فى محيط العالمية على نحو يصل بها إلى الذوبان الكامل ؟ تلك إشكالية معاصرة تحتاج إلى توازن حقيقى يجعل الحركة الثقافية عطاء قوميا لا ينعزل عن تيار العالمية فى الوقت ذاته .

(*) كلمة أمام ندوة حول هذا الموضوع ـ القاهرة ٢ أغسطس (آب) ١٩٩٢ .

رابعا : إن الثقافة فى الدول النامية ، حيث أمم عريقة رغم فقرها ، أصيلة برغم تحديات عاتية أمامها ، إن الثقافة بالنسبة لها رصيد أساسى تؤكد به هويتها ، وتحافظ من خلاله على مزاجها القومى . . وحين تقدم فلكلورها الشعبى أو فنونها الخاصة ، فإنها لا تفصل بين الثقافة كقيمة للوجود الإنسانى والتنمية كإطار لحركة تقدم المجتمع .

خامسا : إن هناك قضية ذات حساسية ، لا أجد غضاضة فى التعرض لها فى مستهل جلسات هذا المؤتمر ، وأعنى بها قضية توظيف الثقافة لخدمة السياسة . وأؤكد هنا أن تلك القضية ذات أهمية خاصة لنا فى المنطقة العربية ، حيث تصبح سلاحا ذا حدين ؛ إذ يمكن خلق الثقافة الموجهة وتوظيفها لخدمة أهداف سياسية معينة ، ونحن دائما مع توظيف الثقافة لخدمة الغايات القومية وتأكيد هوية الأمة ، ولكننا لسنا معها حين تتحول إلى أداة لخدمة الحكام ، وتثبيت مواقفهم فالقادة والزعماء بشر يصيبون ويخطئون . . يبقون ويذهبون . . بينما الأمم هى الخالدة ، والشعوب هى الباقية . . نحن مع ثقافة تمجد الأوطان ، ولكننا نتحفظ على ثقافة تتغنى ـ دوما ـ للحكام .

سادسا : إن رصد الظواهر الجديدة فى عالم اليوم ، بكل المتغيرات فى النظام الدولى ، والتحولات على المسرح العالمى ، مع رسوخ قواعد التعددية ، وتنامى الحريات العامة ، إنما يعكس دور الفرد من جديد باعتباره وحدة الوجود والكيان الأساسى فى الحياة ، وهو أمر يفتح الباب أمام نضوج الملكات الفردية ، ونمو المواهب الفنية ، وازدهار المناخ الثقافى فى كل جوانبه ، وتأكيد قيمة الفرد وتأثيره فى مستقبل ثقافة العصر .

سابعا : إن الثقافة العربية التى تحمل تراث الإسلام الحنيف ، وتحتوى نتاج حضارات متعاقبة تبدو اليوم مهددة ـ أكثر من أى وقت مضى ـ بالمواجهة المصطنعة بين الماضى والحاضر ، والأزمة المفتعلة بين الأصالة والمعاصرة ، والصدام المتعمد بين التراث وروح العصر. وتلك قضية القضايا فسماحة الإسلام تحمل معنى العطاء الثقافى المتبادل ، كما أن تقاليد العروبة تحتوى فى إطارها كل خصائص الفروسية الفكرية .

إن المثقف هو ضمير أمته ، وشاهد عصره ، ونبض الحياة الدافق . . لذلك فإن المثقف العربى هو الذى سيحدد فى النهاية مستقبل الثقافة العربية . وهى ثقافة معروفة بثرائها ، بحكم توافد الحضارات على الأرض العربية ، وتتابع الديانات فوقها . . لذلك لابد من إدراك طبيعة المتغيرات حولنا ، وفتح جسور الاتصال مع دول العالم وشعوبه . . فنحن نعيش فى منطقة ملتقى . . تمتزج فيها الثقافات ، وتتعايش عليها الديانات ، وتصبح الثقافة الرفيعة حقا ميسورا للمواطن ، وسلعة فى متناول فكره ، يرقى بها حاضره ، ويضىء معها مستقبله . . فى ظل عصر الثورة العلمية فى وسائل المعرفة والاتصال ، والانقلاب المذهل فى عالم الصناعة والتكنولوجيا . . فالثقافة زاد الشعوب ورصيد الأمم ، ونبض الحياة .

تعقيب
على الورقة المقدمة حول
(مشروع النهضة .. نجاح وإخفاق) (*)

يظن البعض أن مئوية دار الهلال مناسبة ثقافية تتصل بتاريخ الصحافة العربية . ولكن الأمر عندى يتجاوز ذلك بكثير ، فهى فرصة لمراجعة شاملة لقرن كامل من الزمان ، بكل ما فيه من نجاح وإخفاق ، على ساحات العمل العربى ثقافيا وحضاريا . . سياسيا واقتصاديا .

ولقد رأيت ، احتراما لحيز الوقت المتاح ، أن أوجز حديثى فى نقاط عشر ، تعقيبا على الورقة المتميزة التى تقدم بها إلى هذه الندوة الأستاذ الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله ، وهو بتاريخه السياسى وإسهامه العلمى ، نموذج للمثقف العربى الذى يجمع بين العمق الأكاديمى والالتزام الفكرى فى وقت واحد . وأوجز النقاط العشر فيما يلى :

أولا : إن هذه المناسبة إحياء لروح تكاد تضيع منا . . روح التسامح الدينى وازدهار الفكر القومى . فدار الهلال تعبر عن فترة هامة من صحوة تاريخنا الحديث . وحين يؤسس جورجى زيدان دارا صحفية عربية كبرى ، ويسميها دار الهلال ، بما يرمز إليه الاسم . . فتلك إشارة تلخص فى حد ذاتها قيمة ذلك الحدث الثقافى الضخم ، الذى يرتفع فوق كل عوامل التعصب أو الانقسام ويبتعد دائما عن روح التشنج التى لا نبرأ منها حاليا .

ثانيا : أهمية الاحتفال بمئوية دار الهلال ، أن تاريخها هو استقراء تلقائى لمسيرة النهضة الحديثة فى مصر والوطن العربى ، وهى أيضا تعبير عن الجانب القومى لمشروع النهضة . فالدار مصرية ومؤسسها لبنانى ، وتأثيرها عربى واسع الانتشار . لذلك فهى مدرسة للفكر القومى ، ومرآة لروح العصر ، وتعبير عن المزاجين السياسى والاجتماعى ، للمنطقة فى القرن الأخير .

(*) من حديث لى أمام ندوة احتفال الهلال بعيده المئوى ، القاهرة ـ ١٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٢ .

ثالثا : إن مؤسس الدار عربى مسيحى ، ولكن إسهاماته فى الرواية التاريخية الإسلامية تعطى دار الهلال مظلة إسلامية ، تجذب إليها كل التيارات فى إطار قومى يمثل تزاوجا رفيعا بين الأصالة والمعاصرة . . بين التراث والتحديث . . بل بين الذاتية والتغريب .

رابعا : إن قدوم جورجى زيدان إلى مصر ، وهو العربى المسيحى من طبقة بيروتية فقيرة ، فى الثلث الأخير من القرن الماضى ـ قرن ازدهار مشروع النهضة العربية الحديثة ـ إن قدومه هذا يؤكد غياب روح التعصب الدينى فى المشروع ، ويوضح مفهوم المشاركة والتزاوج بين الفكرالقومى الخالص والتراث الإسلامى القائم وهو فى ظنى أبرز دعامات مشروع النهضة العربية ، الرافض للسيطرة العثمانية سياسيا ، والمستعد لاستقبال رياح النهضة من المشروع الغربى دون تعصب أو انزواء . . فالنهضة تقترن دائما بالتسامح الفكرى ، والبدء من حيث انتهى الآخرون ، وليست دائما رفضا للجديد بدعوى بعث القديم أو إحياء التراث أو البحث عن الأصالة .

خامسا : على الرغم من تسليمنا بمظاهر الاختلاف بين المشروع العربى للنهضة ، والمشروع الغربى للنهضة (الإحياء الجديد) ، وذلك من حيث مصادر كل مشروع وشخصيته الذاتية ، إلا أننا نلحظ قسمات مشتركة بينهما لا يمكن تجاهلها ومنها :

(أ) التركيز على الأدب والفن ، كرأس حربة لفتح قنوات التقدم .

(ب) الاهتمام بالتعليم ، كرافد أساسى لحركة التثقيف والاستنارة .

(جـ) التعويل على الصناعة والتفوق الحرفى ، كمظهر مادى للنهضة .

(د) الربط بين التقدم وحركة الإصلاح الدينى . وأنا هنا لا أقارن بين لوثر وكالفن ، وبين الشيخ جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده ، فنحن مدركون للفارق بين طبيعة المؤسسة الدينية فى الغرب المسيحى ، وطبيعتها فى الشرق المسلم .

(هـ) اقتران المشروعين ، الغربى والعربى ، بالنضال من أجل توسيع قاعدة الحريات الفردية والعامة . فإذا كان التقدم يقوم على أساس أن الحاجة أم الاختراع ، فإن النهضة تقوم على أساس أن الحرية هى شرط الإبداع .

سادسا : إن عروبة النهضة ، لا تمثل بالضرورة علمانية النهضة ، من منطلق أن الارتكاز على الفكر القومى هو ابتعاد تلقائى عن الاعتماد على العامل الدينى كمظهر للوحدة . فالتداخل بين العروبة والإسلام يمثل واحدا من أبرز دعامات مشروع النهضة ، حيث تقف جهود الأزهر التنويرية جنبا إلى جنب مع جهود المدارس المسيحية ، وإسهامات العناصر العربية غير المسلمة الوافدة إلى القاهرة فى القرنين الأخيرين .

سابعا : إن قدوم زيدان إلى مصر ، ضمن مجموعة من الرواد الشوام فى ميادين الأدب والصحافة

والمسرح ثم السينما ، إنما يؤكد ملاحظة متصلة الوجود تاريخيا ، مؤداها أن العلاقة بين مصر وما نطلق عليه تعبير « الشام » ككيان سياسى ، هى علاقة تتجاوز حدود التضامنين السياسى والعسكرى عبر التاريخ ، لتكون دائما محورا ثقافيا للتيار القومى ، الذى واكب النهضة العربية الحديثة ، واتخذ من مصر ركيزة له .

ثامنا : تمثل دار الهلال أيضا تجسيدًا لقيمة المناخ المصرى فى التاريخ العربى الحديث ؛ فهو إطار النهضة القومية ، لا بالمصريين وحدهم ، ولكن بكل الروافد الوافدة إلى ساحته الرحبة من المشرق العربى والمغرب العربى على حد سواء . بل إن الإسهامات العربية غير المصرية فى مشروع النهضة الحديثة ـ التى أسهم فيها طموح محمد على التوسعى بقدر كبير ـ إن هذه الإسهامات التى سعت إلى صحافة مصر ومسارح العاصمة ، ووجدت الترحيب والتجاوب ، إنما هى فى حد ذاتها تعبير عن عبقرية الشعب المصرى ، الذى يحتوى الاتجاهات الوافدة ، ويدرك بفطرته قيمة الامتزاج الثقافى والتفاعل الفكرى ، فى سماحة وثقة بالذات لا نكاد نجد لها نظيرًا فى المنطقة حولنا .

تاسعا : إن مشروع النهضة الحديثة فى الوطن العربى ، بمسعاه المرتبط بمفهوم الحرية ، قد استوعب كل خصائص المشروع الغربى وركائزه ، خصوصا ما كان متصلا منه بالموقف من التراث الثقافى ، والنظرة إلى العامل الدينى ، والاهتمام بالتقدم العلمى ، وحتى مشاركة المرأة فى المشروع كله . ونذكر هنا ، على سبيل المثال ، السيدة روز اليوسف كنموذج لمرأة وفدت من الشام ، لتسهم فى الحركة المسرحية ثم الصحفية فى مصر الحديثة . .

عاشرًا : هذه سمات تحضرنا . . ومظاهر تقدمنا . . نذكرها فى مئوية الهلال ، لنبحث عن خروج من المأزق الكبير ، الذى يواجه حرية الفكر وحق الإبداع ، ويكاد يصيب مشروع النهضة العربية فى مقتل ، دون أساس روحى أو ثقافى أو عقلى .

إعلان المبادئ الفلسطينى - الإسرائيلى
تحول شرق أوسطى (*)

أقبل السلام على المنطقة بدون مقدمات تمهد له ، أو إشارات توحى بقدومه ، نعم . . كانت هناك مباحثات للسلام تجرى بين أطراف النزاع الطويل فى الشرق الأوسط ، ولكن السلام غافل الجميع ولم يدخل من باب المحادثات العلنية ، وإنما قفز من نافذة المفاوضات السرية .

واختلفت الآراء وتباينت الرؤى ، وانقسم المحللون فى تحديد قيمة ما حدث واستكشاف المستقبل القريب بل والبعيد ، من منظور ذلك الذى جرى . حملة مفاجئة للسلام أقرب ما تكون إلى الوجبة الخفيفة التى يتم الاستغناء بها أحيانًا عن وجبة ثقيلة قد لا تحتملها صحة الأطراف أو الظروف المحيطة بهم . ويمكن أن نميز بين عدد من الاتجاهات فى تقييم ما سمى إعلاميا اتفاق « غزة - أريحا اولا » وتدور كلها حول البحث عن حلقة مفقودة أو تفسير تائه أو عامل مجهول .

أولا : هناك من يقولون بأن الاتفاق يعكس تصورًا ذكيًا لمستقبل مصالح إسرائيل فى المنطقة فهى تريد أن تستهلك الورقة الفلسطينية بأسرع ما يمكن حتى تنتقل منها إلى الورقة العربية بكل ما تمثله لها من طموحات سياسية وآمال اقتصادية ، فإذا كانت القضية الفلسطينية هى العقبة أمام إسرائيل فى طريق علاقات دبلوماسية وتجارية بالدول العربية ، فلابد إذن من خطوة تضع العلاقات الفلسطينية - الإسرائيلية فى إطار مقبول يسمح لإسرائيل بتقديم أوراق اعتمادها للدول العربية الخليجية وغير الخليجية بطريقة تضع الأمل الإسرائيلى - لأول مرة فى تاريخها - موضع التنفيذ . ولذلك لم يكن غريبا أن يكون طريق عودة زعماء إسرائيل بعد توقيع الاتفاق فى واشنطن مرورًا بعاصمة عربية وكان ترتيب الأحداث يكشف خفايا المضمون .

ثانيا : تحدث آخرون عن موقف القيادة الفلسطينية . . صراعها مع التيار الإسلامى الذى تقوده « حماس » فى الأرض المحتلة . . ثم أزمتها المالية التى استفحلت منذ موقفها من غزو العراق

(*) الأهرام - ٢٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٣ .

للكويت والذى كان من نتائجه تضاؤل الدعمين السياسى والمادى من بعض دول الخليج عقابا لها على موقفها المؤيد للقيادة العراقية ، بل ويتجاوز البعض هذين السببين . . . التنافس السياسى من ناحية والأزمة المالية من ناحية أخرى . . فيقولون ربما وصلت القيادة الفلسطينية إلى مرحلة نطلق عليها (شيخوخة النضال) بكل ما تحمله من آثار المعارك الطويلة ، والصراعات المستمرة ، وكأنما قد آن الأوان للمحارب أن يستريح ولسان حاله يقول « وداعا للسلاح » .

ثالثًا : تتحدث دوائر مهتمة بشئون الشرق الأوسط لتؤكد أن قوى دولية وإقليمية قد مارست ضغوطها على الأطراف للوصول إلى اتفاق يتمشى مع مرحلة الاسترخاء السياسى التى يشهدها عالم اليوم ، وتسمح للمنطقة بالدخول فى مقايضات نهائية . . وحسابات علوية قد تدخل بها إلى طور الاستقرار النهائى فى عصر يتحدث فيه الكبار عن نظام عالمى جديد وعن ديمقراطية القرار السياسى الدولى وعن قضايا حقوق الإنسان .

رابعًا : يرى تيار آخر لا تخلو نبرته من التشاؤم أن ما حدث لا يخرج عن كونه فيلما سينمائيًا أمريكيًا جيد الإعداد يعطى انطباعًا أكبر بكثير من قيمتيه الفنية والمادية ، بل إن عشرات الملايين التى شهدت على شاشات التليفزيون ومن خلال الأقمار الصناعية حفل توقيع الاتفاق فى البيت الأبيض قد خرجت بانطباع مؤداه أن الولايات المتحدة الأمريكية هى ـ كما كان متوقعًا ـ عراب الاتفاق والقوة الحقيقية التى تقف وراءه ، وتضمن لكل طرف ميزة جانبية همست إليه بوجودها وأوحت له بتحقيقها .

خامسا : يبقى تيار أخير يقول إنه برغم كافة الملاحظات والتسليم بكل التأويلات ، إلا أن الجانب الفلسطينى الذى استطاع أن يخاطب العالم من منصة الرئيس فى البيت الأبيض ، مقر الحكم فى دولة العصر ـ إذا جاز التعبير ـ هو فى حد ذاته إنجاز هائل لا يمكن الإقلال من قيمته أو التهوين من فائدته ، فالفلسطينيـون يرفعون لأول مرة أعلام الوطن على أرضهم فى إشارة لا تخفى على أحد وهى أن الدولة الفلسطينية قادمة يوما ما . فقيادة المنظمة التى كانت تسعى إلى استئناف الحوار المقطوع مع الولايات المتحدة الأمريكية ولو على مستوى السفراء ، قد أتاحت الظروف الجديدة لقائدها الالتقاء المباشر مع القيادة الأمريكية على أعلى مستوى ، بل إن التعامل معه أثناء احتفال التوقيع قد جرى فى ندية كاملة ، عومل فيها عرفات معاملة رؤساء الدول وأصبح الوجود الفلسطينى حقيقة دولية لا مراء فيها ، بعد أن كان القادة الإسرائيليون يتحدثون فى مناسبات كثيرة عن وهم الوجود الفلسطينى وهويته الضائعة .

هذه بعض تفسيرات المتابعين للحدث الكبير والمهتمين بنتائجه ، يتوقع بعضهم السلام والرخاء يطلان على الشرق الأوسط بعد سنوات الصراع الدامى ومواجهاته الضارية ، بينما يرى فريق آخر أن هذه بداية انقسام حقيقى فى صفوف الفلسطينيين خصوصًا بين أصحاب الرؤى القومية ودعاة النزعة الإسلامية . . ففى سنوات النضال تتشابك كل الأيدى ، وفى لحظات التوقيع تظهر الانقسامات

وتفصح عن نفسها كل التوجهات . . ولقد بدت لذلك بالفعل بوادره وإن كان التيار الغالب بين الفلسطينيين فى الأرض المحتلة يبدو داعما للاتفاق ، إذ هو صاحب الحق فى القرار لأنه الطرف الأصيل فى المعاناة الطويلة .

بقيت قضية هامة لابد أن نتعرض لها ، وهى ما يردده الناس خصوصا فى مصر من أن الفلسطينيين قد أضاعوا أكثر من خمسة عشر عاما منذ أن حاول الرئيس الراحل أنور السادات أن يقتحم الحواجز النفسية فى حملة مكثفة من أجل السلام ووضع نهاية للمواجهة العسكرية فى المنطقة ويومها شجبه الفلسطينيون وقاطعة العرب ، واتهموه بالخيانة ، ورموه بأسوأ الصفات ، وما أكثرها فى القاموس السياسى العربى وواقع الأمر أننى اختلف مع من يرددون هذه المقولة وذلك لأسباب كثيرة لعل أهمها :

* إن رئيس مصر ـ أكبر دولة عربية ـ يملك الشجاعة لاتخاذ القرار الصعب فى الوقت الذى يراه بينما قيادة النضال الفلسطينى لا تستطيع ذلك . وهى لا تمارس صلاحيات الحكم لشعب فوق ترابه الوطنى ، فضلاً عن السبق المصرى الطبيعى فى فهم المتغيرات العالمية والإقليمية لدولة كاملة المؤسسات يستحيل مقارنتها بمنظمة للتحرير الوطنى تحمل السلاح ولا سيطرة لها على كل التيارات والقوى حتى فى داخلها .

* لا يمكن إجهاض حركة التاريخ واختزال تأثير عنصر الزمن ، ولا يمكن تلقين الأخ الأصغر ما وعاه أخوه الأكبر ، لأن ذلك ضد حركة التاريخ ومسيرة الزمن ، وربما أيضا ضد طبيعة الأشياء فالبشر لا يبدءون من حيث انتهى من سبقوهم ، ولكن يأخذون طريق التجربة غالبا من بدايته ويتعلمون من تجاربهم الذاتية أكثر بكثير مما يلقنهم الآخرون من تجاربهم هم ، وقد يقع الابن فى أخطاء يحذره منها الأب ولكن يبقى حق التجربة مكفولا ، لا نصادر به تفكير غيرنا ولا نجعل منه مبررًا للوصاية عليه .

* إن أحداثًا كثيرة قد جرت فى الأعوام الخمسة عشر الماضية وقد كان لابد لها أن تقع حتى تتولد بها إرادة التغيير وتتحقق معها القدرة على تحقيق السلام . . إن هناك الانتفاضة الفلسطينية وهى التى أكسبت الوجود الفلسطينى إطاره الواقعى وهويته الحقيقية ، وسمحت له من منطق الثورة على أرضه بأن يدخل المفاوضات ولديه حد أدنى من الثقة بالذات والإحساس بالندية ، إن الانتفاضة للفلسطينيين أشبه ما تكون بحرب أكتوبر للمصريين ، ، مبرر مقنع للسلام وسبب معقول لقبول الواقع .

نضيف إلى ذلك عوامل أخرى عجلت بدخول الأطراف إلى مائدة المفاوضات ، بعضها دولى والآخر إقليمى ، ولقد انتهى الوجود الإيديولوجى والسياسى لما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى وغاب العراق بقوتيه السياسية والعسكرية عن الساحة ، واتجه الموقف السورى إلى الاعتدال ، إلى

جانب عوامل أخرى ذات طبيعة مختلفة مثل اجتياح إسرائيل للجنوب اللبنانى منذ عام ١٩٨٢ وتدهور العلاقات الخليجية ـ الفلسطينية فى السنوات الأخيرة ، وتنامى قوى السلام داخل المجتمع الإسرائيلى بفعل التطورات المختلفة داخليا وخارجيا . هذه ـ فى إيجاز ـ تصورات رأيت أن أسوقها فى غمرة الاحتفال بالسلام القادم مؤكدًا أن صوت العقل العربى يجب أن يعلو فى هذه المرحلة كما لم يحدث من قبل ، لأن ما يجرى ليس عرسًا فلسطينيًا أو إسرائيليًا أو عربيا ولكنه تحول شرق أوسطى يبدأ من المسلمات ولا ينتهى عند تغيير المواقف . . إننا أمام خريطة جديدة للمنطقة . . وأسلوب جديد للصراع . . ومرحلة مختلفة من المواجهة . . ويبقى الأمل دائمًا ما بقى الإنسان واستمرت الحياة .

النقاط العشر .. قراءة فى المستقبل (*)

إن ما جرى أخيرًا على الساحة العربية إنما هو جزء لا يتجزأ من نتائج تطورات إقليمية ومتغيرات دولية فى السنوات القليلة الماضية ، فهناك مؤثرات فى عالم اليوم تحرك مجريات الأمور وفقًا لمصالح قوى كبرى أقدر من غيرها على تصريف مسار الأحداث بحيث يمكن أن تهدأ صراعات وتنفجر أخرى أو تختفى قضايا مزمنة وتطفو على السطح مشكلات حادة . .

إن ما حدث هو ببساطة أن اللعب بالورقة الفلسطينية التى طال استخدامها لأكثر من نصف قرن من الزمان لن يستمر على مسرح السياسية الإقليمية ، وكأننا أمام إعلان مباشر يقول لأول مرة «الوسطاء يمتنعون » فقد بدأ الاتصال مباشرًا بين أطراف الصراع جميعا . . كما أننى أضيف إلى ذلك أننا بصدد حديث متكرر عن شرق أوسط جديد قد يتجاوز كثيرًا بمفهومه القادم الطرح القومى التقليدى حول منطقة عربية متجانسة . .

وهنا يمكن أن نتحدث عن « نقاط عشر » حول التطور الأخير بتوقيع (اتفاق غزة ـ اريحا أولا) بين إسرائيل والفلسطينيين ، ونوجزها فيما يلى :

أولا : إن خريطة سياسية جديدة يتم رسمها وصياغة بنودها لتحول شرق أوسطى قد يكون جذريًا وشاملاً ، ولكنه سوف يراعى بالضرورة اعتبارات تتصل بأهداف القوى صاحبة المصلحة فى الوجود على أرضه والمشاركة المستمرة فى رسم سياسات مستقبله .

ثانيا : سوف يشهد الشرق الأوسط ـ ومدلوله سياسى وليس جغرافيًا فهو يشير إلى مدلول استراتيجى استخدمته وزارة الحرب البريطانية فى نهاية الحرب العالمية الثانية وبدأ فى التداول بحيث يشير إلى منطقة وسط على الطريق فى اتجاه الشرق الأقصى ـ نقول سوف يشهد عملية إعادة توزيع مراكز القوى وفقا لنتائج التطورات الدولية والإقليمية وما نتج عنها من متغيرات فى النظام

(*) من حديث للمؤلف فى ندوة الأهرام ـ أول أكتوبر (تشرين أول) ١٩٩٣ . (دارت حول هذه النقاط محاضرة للمؤلف ومناقشة مفتوحة بمدينة الإسكندرية بدعوة من الرابطة المصرية للقانون الدولى فى ٩ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٩٣ .

العالمى كله بدءًا من اختفاء الاتحاد السوفيتى ككيان سياسى مؤثر وانتهاء بضرب العراق عسكريا وسياسيا ومرورًا بعديد من الأحداث الكبرى على امتداد السنوات الأخيرة ، وسوف تسعى إسرائيل إلى التعامل الثنائى المباشر مع دول المنطقة كل على حدة ، وتلك فلسفة خاصة تميزت بها سياسة إسرائيل منذ قيامها فهى لا تتعامل مع تجمع عربى ولكنها تفضل ـ لأسباب لا تخفى ـ التعامل مع الدول ككيانات منفصلة . . فهى تتطلع إلى علاقات بدول الخليج من جانب ودول سوريا الكبرى من جانب آخر ودول المغرب العربى فى اتجاه ثالث وأيضا العراق ثم دول البحر الأحمر الإفريقية العربية كذلك ، ولقد حاولت إسرائيل بنفس المنطق أن تدير مفاوضاتها الأخيرة وتعاملت مع دول وليس مع مجموعة عربية .

ثالثا : إن توقيع الاتفاق الإسرائيلى ـ الفلسطينى يعبر عن رغبة إسرائيلية قوية فى استهلاك الورقة الفلسطينية فى أسرع وقت ممكن تطلعا إلى الورقة العربية بكل ماترمز إليه من علاقات اقتصادية وتبادل تجارى وتعاون إقليمى ، فإرضاء الفلسطينيين ـ ولو مؤقتا ـ أمر مطلوب للوصول إلى بقية العرب الذين لا يمكنهم المزايدة بعد ذلك فيصبحون ملكيين أكثر من الملك ذاته .

رابعًا : إن استمرار الصراع بين التيار الدينى والتيار القومى فى المنطقة سوف يأخذ أبعادا جديدة قد تصل بشدة إلى الساحة الفلسطينية حيث التنافس السياسى بين « منظمة التحرير الفلسطينية» وحركة « حماس » والذى كان أحد الدوافع وراء استجابة قيادة عرفات لتوقيع الاتفاق الأخير حتى يحظى باعتراف الولايات المتحدة والقوى الحليفة بقيادته ويكتسب شرعية الاستمرار فى المستقبل .

خامسا : إننى أكاد ألمح صورة المستقبل وهى تحوى تغييرات شاملة فى قيادات العمل الفلسطينى خصوصًا والعربى عمومًا لأن التاريخ يقول إنه إذا طوى فصل وبدأ فصل جديد له مزاجه الخاص وطابعه المتميز فإن ذلك الاختلاف يفرز بالطبيعة قيادات جديدة تتمشى مع المزاج السياسى للتطورات التى حدثت فالذين شاركوا فى الكفاح المسلح ليسوا هم بالضرورة القـادرين على صنع السلام ، كما أن الذين قـادوا السفينة عبر أنواء الصراع وأمواج العداء ليسوا هم بالضرورة الذين يصلون بها إلى شاطئ التعايش ومرفأ السلام ، إن التاريخ يقول إن الذين يقومون بالتحولات الكبرى غالبا ما يرحلون سراعا بعد أدوار تاريخية إنسانية عظمى .

سادسا : لقد جاء الوقت لإعادة النظر فى هيكل جامعة الدول العربية ، ميثاقا ومؤسسة . . فالنظام الإقليمى العربى ليس هو النظام ذاته الذى نسميه بالنظام الشرق أوسطى فللأخير ملامح جديدة وخصائص مختلفة سوف يتولى المستقبل القريب والبعيد إبرازهما كما أن التغيرات المحتملة على نهج العمل القومى تدعو جامعة الدول العربية ـ بكل ما لها وما عليها ـ إلى مراجعة شاملة لدورها لأن من لا يستطيع أن يغير سوف يتغير .

سابعا : لا نستبعد حدوث تداخلات جغرافية وسياسية فى منطقة (الشام) فالخريطة التى حددت كيانات مستقلة بعد الحرب العالمية الأولى قد تدخل جزءًا من حسابات إقليمية يجرى الإعداد لها والتمهيد لقبولها .

ثامنا : إن عروبة الخليج ووضع العراق وما طرأ عليها منذ الثانى من أغسطس (آب) عام ١٩٩٠ سوف يظل عاملاً سلبيًا فى الجانب العربى وطرفا شائكا فى النظام الشرق أوسطى حيث لا حدود للمخاوف الأمنية لبعض دول الخليج ، إلى جانب احتمال عودة بعض دول المغرب العربى إلى الابتعاد عن مشكلات المشرق العربى خصوصا بعد عودة جامعة الدول العربية إلى مقرها الأصلى فى القاهرة واحتمال انتقال القيادة الفلسطينية إلى أرضها الطبيعية .

تاسعا : يكاد يكون هناك شبه إجماع على تزايد دور كل من إيران وتركيا كتخوم شرقية وشمالية للشرق الأوسط بمدلوله السياسى ، فالدور الإيرانى فى ظل اهتزاز ميزان القوى فى الخليج بغياب قوتى العراق العسكرية والسياسية ، وكذلك تركيا بأطماعها الإقليمية ودورها فى مشكلة المياه إن الدولتين تسعيان لتحقيق مكاسب سياسية على ضوء التغيرات الناجمة عن دخول المشكلة الفلسطينية مرحلة الانفراج .

عاشرًا : إن مستقبل دور مصر على ضوء المستجدات الأخيرة محكوم بقدرتها على توظيف إمكاناتها الفريدة التى لا تنافسها فيها إسرائيل ولا تنازعها عليها تركيا وإيران وأعنى بذلك التركيز على قيادة تضامن عربى يقوم على أسس ثقافية واقتصادية وحد أدنى من التنسيق السياسى فمصر صاحبة المكانة التاريخية والتضحيات القومية والثقل البشرى والأهمية الثقافية قادرة على توظيف كل ذلك فى إطار « إعادة ترتيب البيت العربى من الداخل » لمواجهة التحديات الجديدة خصوصا وإن مصر آثرت على امتداد خمسة عشر عاما ، أن يظل سلامها مع إسرائيل تعاقديًا باردًا ، انطلاقا من التزام قومى حاولت به مصر إقلال النتائج القومية لصلحها المنفرد مع إسرائيل ، أما الآن فقد سقط ما يمكن تسميته « بالحياء القومى » وأصبحت الأبواب مفتوحة للتعامل بين القوى الإقليمية على أسس جديدة .

. . هذه فى ظنى بعض تصورات للمستقبل ليس فيها رؤى قاطعة أو أحكام مسبقة ولكنها محاولة لاستقراء ما هو قادم على ضوء دراسة ما هو ماض . . وتبقى المنطقة فى حالة تفاعل دائم وترقب مستمر حتى الوصول إلى مرحلة توازن تسمح بالحديث عن سلام شامل . . وربما عادل .

فهـــرس

رقم الإيداع ١٠٥٦٢ /٩٩
I.S.B.N 977 - 01 - 6357 -0

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة».. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لا يبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مـ
ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع 2000

١٥٠ قرشا